مكة المكرمة في رحلة
علي بايْ العباسي ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م
« عرض ودراسة وتحليل »



مركز تاريخ مكة المكرمة

The Center of Makkah History

إعـداد

أ. د. صالح بن محمد السنيدي

قسم التاريخ والحضارة – جامعة الإمام بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لقد فتحت مذكرات الرَّحالة وسجلاَّت رحلاتهم،فوجدت الطَّريق أمامنا واسعاً لنبش ماضينا والتَّنقيب في حفائره من جديد، ومنحتنا هذه المذكرات الفرصة لنجلو جواهره، ونزيل ما تراكم عليه من صدأ السِّنين وغبار الزَّمن، خاصَّة وأنَّها كُتِبَت بطريقة تصويريَّة، تعطي المعلومة مكانة توثيقيَّة وتاريخيَّة إذا سلمت من المبالغة والهوى.

ويمثل موضوعنا الذي نتقدم به إلى القارئ الكريم، أحد هذه الرَّوافد الوثائقيَّة لمدة عصيبة من تاريخ منطقتنا العربيَّة، التي أصبحت هدفاً وصيداً ثميناً، يسيل له لعاب المستعمر الغربي الأوروبي، بعد أن بدأ الضَّعف والهوان ينخر في جسد هذه البلاد، لعوامل داخليَّة وخارجيَّة يأتي على رأسها ضعف الدولة العثمانيَّة، وتفاقم المشاكل الداخليَّة والخارجيَّة، ممَّا أضعف جبهته الداخليَّة، وجعله هدفاً للأطماع الاستعماريَّة.

وسنتعرَّض في حديثنا، لمصدر له قدره واعتباره،سواءاً من حيث المدة التي تطرَّق لها، أو من ناحية كونه أحد أبرز المصادر التي اعتمدتها الدَّوائر الاستعماريَّة والاستشراقيَّة لمدة غير قليلة من الزَّمن، فصاحب الرِّحلة استطاع بما أوتي من ملكة وحبٍّ للمغامرة، أن يخترق الحواجز التي كانت عائقاً لأقرانه الأوروبيِّين، وتغلغل حتى وصل إلى بواطن صناع القرار وأصحاب الشَّأن في البلاد التي اختارها هدفاً لزيارته، كما تسلَّل إلى أعماق تلك المجتمعات التي رحَّبت به وفتحت له صدرها، على أنَّه ابن الدَّار وسليل الحسب والنَّسب من أبنائها البررة؛ ومن هنا فقد ظفر بما لم يتمكن منه غيره من المغامرين والرَّحالة الأجانب الذين زاروا البلاد الإسلاميَّة.

تتجلى أهميَّة هذه الرِّحلة في العرض السلس لمعلوماتها التي اتسمت بالثَّراء والتَّنوع، فصاحب الرِّحلة لم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أقحم نفسه فيها، كعادة الجواسيس الذين يهمُّهم إثراء تقاريرهم ومعلوماتهم بما يدور في هذا البلد موقع الزيارة، من أحداث سياسيَّة وحوادث اجتماعيَّة ومنشآت عمرانيَّة وأطلال مبانٍ اندرست وقضايا اقتصاديَّة وأحوال جويَّة إلى جانب المعتقدات الدينيَّة والعلميَّة والجغرافيَّة، وقد تطرَّق دومنجو باديا أو علي باي العبَّاسي كما سمَّى نفسه، لكلِّ ذلك وغيره في رحلته الموسومة بـ"**رحلات في المغرب وطرابلس واليونان ومصر**" في جزئها الأول و "**رحلات في جزيرة العرب وفلسطين وسوريَّة وتركيا**" في جزئها الثاني، والتي كانت في بداية القرن التاسع عشر الميلادي/ نهاية الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري.

ونجدها فرصة مناسبة للمشاركة في ندوة "**المصادر التاريخيَّة لمكَّة المكرَّمة عبر العصور**" التي يقيمها مركز تاريخ مكة، لنعرض لبعض النقاط والقضايا التي تناولها هذا الرَّحالة في رحلته إلى هذه المدينة، ونتوقَّف عندها بالتَّحليل والمناقشة، وهي معلومات بلا شكّ ستثري هذا الموضوع، وستضيف جديداً للمهتمين والباحثين في تاريخ مكَّة عموماً والمهتمين بهذه المدة خصوصاً.

وقد تناول البحث بعد التَّعريف بصاحب الرِّحلة وأهدافه ومسار رحلته، الظُّروف التي مرَّت بها المنطقة زمن الرِّحلة، ثم تطرَّقنا للحالة السِّياسيَّة في مكَّة المكرَّمة عند وصول الرَّحالة، وتوسَّعنا في بالحديث عن وصف هذه المدينة، وما ورد في مذكِّرات الرَّحالة عنها من معلومات متفرِّقة، مع النَّقد والتَّحليل والمقارنة لما أدلى به في هذا المجال .

وقد كانت هذه المعلومات والأحاديث عن البلاد التي زارها غنيَّة بالتقارير والتَّصوير الدقيق لأوضاعها السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة والتضاريسية، وكان لمكَّة نصيبها من كلِّ ذلك، وقد سبق وأن قمنا بترجمة ودراسة ما يتعلَّق بالجزيرة العربيَّة من هذه الرِّحلة، ونشرته دارة الملك عبد العزيز بالرِّياض مشكورة تحت مسمَّى: "**رحَّالة إسباني في الجزيرة العربيَّة**"، كما أفردنا الجزء الخاص بمصر في دراسة مستقلة، نشرت في ندوة اتحاد المؤرِّخين العرب بالقاهرة[1]، ولعلَّ الظُّروف تُواتي لاستكمال عرض ودراسة ما تبقَّى من سجلات هذه الرِّحلة ممَّا لم تصله يَدُ الباحثين.

نسأل الله التوفيق والسَّداد.

(١) نشرت في سجلات هذه الندوة التي حملت عنوان: **العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة**، تحت اسم: "مصر في مذكرات الرحالة الإسباني دومنجو باديا أو علي باي العباسي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي" سنة ٢٠٠٤م ص ٢٧٧-٣٠٣.

أولا: دومنجو باديا "علي باي العبَّاسي"
ترجمته ـ أهدافه ـ مسار رحلته

١. ترجمته:

مع أنَّنا تطرقنا إلى سيرته وفصَّلنا الحديث عن ظروف رحلته وملابساتها في الكتاب المذكور، إلاَّ أنَّ قارئ هذا الموضوع قد لا يتمكن له الاطِّلاع والإحاطة بسيرة هذا الرَّحالة، وأهداف رحلته لذا سنحاول عرضها باختصار.

مع أنَّ المعلومات الموجودة لدينا لا تتناسب مع حجم هذا المرء وما قام به من مغامرات وأدوار، لكنَّها مع ذلك تلقي أضواءاً كافيَّة حول حياة هذا الرَّحالة، والتقلبات السياسيَّة التي عاشها وشارك في أحداثها. وقد اهتمَّ به الباحثون الكتلان، وأفردوه بدراسات وبحوث خاصَّة، كان آخرهابحثبعنوان :"علي باي Ali Bei حاجّ كتلاني في ديار الإسلام" باللغة الكتلانيَّة[1].

ينتمي باديا إلى أبٍ كتلاني كان يعمل سكرتيراً لحاكم برشلونة وأمٍّ بلجيكيَّة اسمها كاتالينا لبليخ Catalina Leblich، أمَّا هو فاسمه دومنجو باديا لبليخ Domingo Babia Leblich ولد في برشلونة للأول من أبريل سنة ١٧٦٧م، وانتقل أبوه إلى غرناطة ثم إلى مدريد يرافقه ابنه الذي تبدو عليه علامات النَّجابة والنبوغ، فوجَّهه والده لدراسة الإدارة، وعندما بلغ الرَّابعة عشرة أصبح معاوناً إداريّاً لوالده في بلدة على ساحل غرناطة، ثم خلف والده في منصبه عندما انتقل إلى مدريد وعمره وقتها تسعة عشر عاماً، وبعد أن بلغ أربعاً وعشرين سنة تزوَّج من فتاة غرناطيَّة، وفي هذه الأثناء تحوَّل إلى قرطبة ليعمل في مصلحة التِّبغ، وأثناء ذلك كان الطُّموح وحبُّ المغامرة يدفعانه إلى البحث والدِّراسة، وإجراء

(١) نشر في برشلونة سنة ١٩٩٦م.




التَّجارب العلميَّة المتعددة، التي كان آخرها تجربته الاستطلاعيَّة حول الغاز وتأثيره في رفع المناطيد، كما سبقها وتلاها محاولات متعدِّدة بقصد الترقيَّة، وهي وإن كانت غير موفَّقة في غالبيتها، إلاَّ أنَّها تدلُّ بوضوح على ما ذكرناه من طبيعته المميزة والمغامرة، وهذا ما دفعه فعلاً إلى التقدم بمشروع هذه الرِّحلة التي نحن بصددها، وذلك في شهر أغسطس من سنة ١٨٠١م إلى الملك الإسباني باسم "مشروع رحلة إلى شمال إفريقيَّة ذات أهداف سياسيَّة وعلميَّة"، وقد تمَّت الموافقة عليها مع ما يتطلبه ذلك من تمويل وتجهيز؛ عندها بدأ باديا يستعدُّ للرِّحلة ويحضِّر لمستلزماتها، من أجهزة ومعدَّات وتهيئة نفسيَّة ولغويَّة ومعرفيَّة تتناسب مع حجم البلاد المقصودة، فرحل إلى لندن وهناك التقى بأعضاء الجمعيَّة الأفريقيَّة، وبحث معهم إمكانيَّة إجراء بعض الاكتشافات في القارة الإفريقيَّة جنوب الأطلس، ثم انتقل إلى باريس وأجرى بعض الاتِّصالات الخاصَّة، وأعدَّ بعض الأجهزة العلميَّة التي تلزمه في رحلته هذه، وقام بمبادرة منه فخَتَنَ نفسه تأكيداً لشخصيَّته الإسلاميَّة التي سوف يتقمَّصها فيما بعد، وبعد سنتين من الاستعدادات والتَّجهيزات، انطلق في رحلته صَوْب المغرب التي وصلها في ٢٩ من شهر يونية سنة ١٨٠٣م معلناً بداية الرِّحلة، ومتنكِّراً بالزِّيِّ العربي، مُدَّعياً أنَّه ينتمي إلى الأسرة العبَّاسيَّة،ومُتَّخذاً من "علي باي العبَّاسي" اسماً له(١).

(١) حول هذا الرحالة ومذكراته وتقاريره انظر البحوث والدراسات التالية: ما كتبه مواطنه خوليو رومانو: Viajes de Ali Bey el Abbasi مدريد ١٩٥١ص ص١١-٢٤. جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب** ترجمة قدري قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض؟ ص ١٨٤-١٨٦؛ ٢٩-٣٤ص **Ali Bei;** Barcelona 1996 مجموعة من الباحثين; روبن بدول: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة: د. عبد الله نصيف، جامعة الملك سعود الرياض١٩٨٩م ص. ٢٩-٣٤ ; الطاهر أحمد المكي: "أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر" مجلة الفكر العربي، عدد ٥١ يونية ١٩٨٨م ص ١٧٥-١٩٤ بالإضافة إلى مقدِّمة الرِّحلة (ط. برشلونة) نفسها ; بيتر برينث: **بلاد العرب القاصية**، ترجمة: خالد

في رحلته هذه، جاب المغرب وولاية طرابلس وقبرص وبعض جزر اليونان ومصر والحجاز وفلسطين وسوريَّة وتركيا، ثم عاد إلى بلاده عن طريق فرنسا سنة ١٨٠٧م، وكانت الأمور فيها مضطربة، حيث اقتحمها نابليون بونابرت وأسقط حكومتها، ونصّب ملكاً موالياً له فيها، ثم ضمَّها إلى حكمه المباشر، فتردَّد رحَّالتنا هذا ما بين تفرُّغه لأبحاثه ومشاريعه العلميَّة، أو الدُّخول في معترك السِّياسة ودهاليزها المظلمة، فجذبته الأضواء، وتقلَّب في مناصب متعدِّدة تحت إدارة أخي بونابرت جوزيف، وعندما انتهى الحكم الفرنسي في إسبانيا، آثر باديا الرَّحيل معه والانخراط في خدمة الفرنسيِّين وتحت حمايتهم، بعد أن أحرق جميع أوراقه الوطنيَّة.

على أنَّه سيُعاود الكرَّة مرَّة أخرى، ويشدُّ الرِّحال من باريس هذه المرَّة باتِّجاه الشَّرق، الذي دفعته إليه دوافع متعدِّدة، سنتوقَّف عندها فيما بعد، لكن ما يهمُّنا هنا أنه لقي مصيره في هذه الرِّحلة الأخيرة، وهو في طريقه إلى مكَّة المكرَّمة في نهاية شهر أغسطس من سنة ١٨١٨م في ظروف غامضة، قيل إنه أصيب بالزُّحار وذلك على بعد ١٢٠ ميلاً من دمشق، ولا يستبعد البعض، أنَّ السُّمّ قد دُسّ له من قبل أعدائه الإنجليز[(١)] .

عيسى وأحمد إسبانو بيروت ١٩٩٠م ص ٩٨-١٠٦. وفيما يخص رحلته إلى المغرب فقد تطرَّق لها عبد الحفيظ حمَّان في بحث مختصر بعنوان: "رحلات الأوروبيين إلى شمال أفريقية في مطلع القرن التاسع عشر" ضمن بحوث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي التي أقامتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م أنظر: الصفحات ٨-٢٢ ; كما توقف عند هذه الرِّحلة إلى الحجاز نفس المؤلف في بحث له بعنوان: " الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنجو باديا في بداية القرن التاسع عشر" مجلة التاريخ العربي عدد ٢٣ سنة ٢٠٠٢م ص٢٩-٦٥; السنيدي: **رحالة إسباني**... ص١٩-٢٤ .

(١) Ali Bei; p. 263. ; روبن بدول : **الرحالة** ص ٣٤ .

٢. أهدافه:

بعد هذا العرض السَّريع لسيرته نتوقف عنده بالتحليل والدِّراسة لمعرفة دوافع الرِّحلة، ولصالح من كانت تلك المعلومات التي حملتها مجلداتها وتقاريرها؟.

وكما رأينا فيما عرضناه، يظهر لنا طبيعته رجل مغامر وذكي وطموح تدرج بسرعة في المناصب الإداريَّة، ومع ذلك لم يجد فيها ما يرضي طموحه، ففكر بطريقة انتهازيَّة توصله بذوي الشأن وأصحاب السُّلطان، وجدها في موضة ذلك العصر وهي الاكتشافات والتَّجارب العلميَّة التي كانت حديث المجالس في أوروبا، وطموح شبّانها ومحطُّ أنظار ساستها، فكانت تجاربه ومحاولاته العلميَّة ورقة أدخلته إلى الدهاليز المتنفذة وصانعة القرار في بلده، ومع أنه فشل في معظم تجاربه هذه خاصة الطيران بالمنطاد بواسطة الغاز، إلا أنه تحول إلى ما هو أهمّ، فعالم المغامرات واكتشاف العالم الجديد، مازال له بريقه ولمعانه في هذا المدة، والصِّراع حوله بين أقطاب القوى الاستعماريَّة الأوروبيَّة المتنافسة على أشدّه، وتركة الرَّجل المريض المتمثِّل بالدَّولة العثمانيَّة، تغري بالمغامرة ودخول المعترك. كلُّ ذلك دفع بمغامرنا إلى الدُّخول في المعمعة والتَّقدم بمشروع الرِّحلة.

لقد احتار من كتب عن هذا الرجل في تصنيفه وتبعيَّته، فمع اتفاقهم على انخراطه في سلك الجاسوسيَّة وأساليبها القذرة، إلاَّ أنَّهم لم يتَّفقوا على من كان يقف وراءه ويتلقى تقاريره الدَّوريَّة، هل هم الأسبان بتطلعاتهم نحو شمال إفريقيَّة وبشكل خاص المغرب، أم نابليون بأحلامه وطموحاته التَّوسعيَّة نحو الشَّمال الإفريقي والشَّرق الإسلامي العربي؟

الدَّلائل التي تجعل منه عميلاً إسبانيّاً أو فرنسيّاً ملتزماً، لم تصل إلى درجة اليقين مع وجودها وظهورها بوضوح وبشكل مكشوف حينما كان بالمغرب، عندما كان يسعى لتحقيق طموحات قادة بلاده فيها; وفي مرحلة الإعداد للرِّحلة زار لندن والتقى بأعضاء الجمعيَّة الإفريقيَّة وبحث معهم إمكانيَّة العمل لصالحهم في إفريقيَّة تحت ستار الاكتشافات العلميَّة [1]، وكما نعرف مدى ارتباط هذه الجمعيَّات بالأهداف الاستعماريَّة لبلادها، ومع ذلك فإنَّنا نجهل مدى تجاوب هذه الجمعيَّة مع مشروعه هذا، فهل كانت إحدى المموِّلين له في رحلاته عبر البلاد العربيَّة؟ وفي ذات المدة وبعد أن خرج من لندن اتَّجه إلى باريس بحجَّة استكمال الاستعدادات للرِّحلة، فهل عقد صفقة مع حكومة فرنسا للعمل لصالحها في هذه المناطق مشروع الرِّحلة؟ ثم ما مدى ارتباطه بحكومة بلاده على مدى مشوار أسفاره ومغامراته؟ كلُّ هذه التَّساؤلات تحتاج لأكثر من دراسة للإجابة على ملابساتها خاصَّة وأنَّ باديا. كما يقول مواطنه خوان بارثيلو Juan Barcelo. "لا يعدوكونه جاسوساً يستحيل معرفة سيرته الذاتيَّة، لأنَّ الجواسيس ليس لهم سيرة واحدة بل متعدِّدة، هي التي يمكن بمجموعها أن نخرج بتصوُّر ولو جزئي عنهم[2] "; وفي رأينا أنَّ باديا استخدم كلَّ أساليب المكر والخديعة، لا ليخدع بها ضحاياه السُّذَّج وذوي النَّوايا الطيِّبة في البلاد التي زارها فقط، وإنَّما ليلعب على كلِّ الحبال، فبعد أن أقنع حكومة بلاده بمشروعه التَّجسُّسي والتخريبي داخل المغرب، وكسب الدَّعم والتمويل منها طيلة مدَّة إقامته بالمغرب، مرتبطاً بشبكتها التَّجسُّسيَّة، ومزوِّداً لها بالأخبار والمعلومات والاقتراحات،

---

(١) روبن بدول : **الرحالة** ص ص ٣٢-٣.

(٢) **Ali Bei**, p. 251.





ومستمدّاً منها التَّوجيهات، تحت اسم رمزي هو "الشيطان" أحياناً و"الرَّحالة" في أحيانٍ أخر[١]، ساعياً إلى كسب السُّلطان مولاي سليمان، وإقناعه بالحماية العسكريَّة الإسبانيَّة ضد أعدائه، وفي حالة رفضه، فسيدفع البلد إلى حربٍ أهليَّة، تجعل الأسبان يصطادون في الماء العكر[٢]، ومع ذلك فإنَّ الأمر تغيَّر عندما غادر باديا المغرب، فمع محاولة البعض تأكيد استمراريَّته في العمل لصالح إسبانيا، من أجل تواجد في منطقة الشَّرق الأوسط لتكون قريبة من الهند والشَّرق الأدنى، ولذا كان على صلة بعناصر إسبانيَّة ذات نفوذ واسع من جزيرة مايوركا[٣]، لكن مع احترامنا لهذا الرَّأي إلاَّ أنَّه يصعب إيجاد أي دليل يؤكد هذه المقولة، بل على العكس من ذلك، كلُّ الأدلَّة تشير إلى أنَّه يعمل لصالح الفرنسيِّين بعد خروجه من المغرب مباشرة، فلم يمض وقتٌ طويل على مغادرته للجزائر، حتى كان نابليون يفكر بإنزال عسكري فيها، بل هناك دلائل تشير إلى أنَّه كان يفكر بإنشاء مستعمرات سكنيَّة أوروبيَّة على السَّاحل الشَّمالي لإفريقيَّة، للاستفادة من حبوبها وسدّ حاجة جيوشه منها[٤]، وحتى وصل الأمر بالبعض ليقول: بأنَّ باديا ليس إلاَّ أحد موظَّفي إمارة البحر الفرنسيَّة، أرسل إلى البحر الأحمر لتدوين ملحوظات فلكيَّة وتحديد مواقع جغرافيَّة[٥]، ومن المحتمل أنَّ نابليون قد رغب في أن يتعرَّف على حقيقة الحركة الاصلاحيَّة الجديدة التي ظهرت في جزيرة العرب، وفتح قنوات اتِّصال معها.كما أنَّ قصَّة الرِّحلة مليئة بالإشادة بفرنسا والفرنسيِّين،

---

(١) **المقدمة الرحلة** : ص ١٦ ; Ali Bei, p. 269.

(٢) **المقدمة** : ص ١٥ .

(٣) Ali Bei, p. 259.

(٤) روبن بدول : **الرحالة** ص ٣٣ .

(٥) جاكلين بيرن : **اكتشاف جزيرة العرب** ص ١٨٥ .

وإنجازات الحملة الفرنسيَّة على مصر، ثم يؤكِّد هذه العلاقة باتِّصاله بالقناصل الفرنسيِّين أينما حلّ، ويزيدنا يقيناً بهذا الارتباط عودته إلى فرنسا أوَّلاً وليس إلى إسبانيا، وأكثر من ذلك تعاطفه بل وتعاونه مع الاحتلال الفرنسي لبلاده، ثم رحيله مع قواتها بعد اندحارها إلى باريس، لعلَّ ذلك كله لا يدعُ مجالاً للشَّك في ارتباط باديا بحكومة فرنسا بعد خروجه من المغرب.

هذه الثَّوابت التي أكَّدها عَدَدٌ من الكتاب الأوروبيِّين، نستبعد معها أن تكون تزييفاً لحقائق ثابتة أو تشويها للصورة التي حاول أن يرسمها لنا باديا فيما كتبه، من أنَّه مُسْلمٌ يسعى لصالح الإسلام والمسلمين، وربَّما نشكُّ في هذه لو أنَّها توقفت عند الاتِّهامات ولم تصل إلى المسلمات الثابتة، لكن مع هذه الثوابت فإنَّ من كتبوا عنه احتاروا في مدى تلك العلاقة وهل تصل لحدِّ العمالة، خاصَّة عندما وقفوا مبهورين أمام مقدرته في مزج شخصيته الأسطوريَّة بالحقيقيَّة، وإظهاره لنفسه وكأنَّه مؤمنٌ إيماناً عميقاً بكلِّ ما يكتبه، ثم تمسُّكه بشخصيَّته الخياليَّة طيلة مراحل رحلته وحتى بعد عودته إلى أوروبا. كما تساءل أولئك عن تلك الإمكانيات الماليَّة التي توفرت له وسهلت رحلته وجعلته ينفق ببذخ، ما هو مصدرها إذا افترضنا براءة الرَّجل وصحَّة ما ذهب إليه؟ ونحن بدورنا نتساءل ونضيف تساؤلاً آخر ملحّاً هو كيف وصل باديا وبهذه السُّهولة إلى قصور أمراء ورؤساء تلك البلاد العربيَّة التي زارها؟ حيث يجد الطَّريق أمامه سالكة ميسرة، فبعد أن وصل المغرب التقى سلطانها وكسب ثقته، ثم نجد حاكم طرابلس يتوسَّل إليه بالبقاء كما يدَّعي في مذكِّراته، وكذلك الحال مع محمد علي بمصر، وفي الحجاز يسكن بجانب قصر الشَّريف غالب ويتلقَّى استقبالاً حفياً منه، فهل صدّق هؤلاء ادِّعاءاته وانتحاله لهذه الشَّخصيَّة الخياليَّة، أم كان للهدايا المميَّزة التي تسبقه،




والتَّوصيات الخاصَّة من قبل حكومات أوروبيَّة معيَّنة بشكل أو بآخر أثر في ذلك القبول وتلك التَّسهيلات؟

لكنَّ هذه الدلائل والمؤشرات، تزيدنا يقيناً بأنَّه ليس سوى أحد هؤلاء المستكشفين وموظَّفي الدَّوائر الاستعماريَّة، مع محاولته المستميتة خداعنا وإقناعنا بأنَّه أحد المسلمين نسباً واعتقاداً، وأنَّه الباحث عن الحقيقة العلميَّة المجرَّدة، فبالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً من علاقاته وارتباطاته بالقوى الاستعماريَّة، فإنَّ هذه العلاقة تلازمه في رحلته داخل البلاد الإسلاميَّة، وليس في المغرب وحدها بل في طرابلس ومصر والحجاز، ففي قبرص مثلاً التي كانت خارج إطار رحلته مكث فيها حوالي الشَّهرين بحجَّة أنَّ المركب والأمواج دفعت به إليها، وكانت حائلاً دون وصوله للإسكندريَّة، وهو ما يلقي أكثر من علامة استفهام، فلو كانت المسألة كذلك لما احتاج إلى كلِّ هذه المدة التي كرَّسها للالتقاء بشخصيّات سهَّلت له مهمَّته[١]، ويرجِّح بارثيلو أن يكون التقى خلالها بزملائه من عملاء البلاد الأوروبيَّة، وتزوَّد فيها بالمال والتَّعليمات اللازمة[٢]، ثم في مصر، يزوره القنصل الفرنسي[٣]، وتتكرر هذه الزِّيارات واللقاءات من قبل مسؤولين فرنسيِّين وأوروبيِّين في أكثر من مناسبة وأكثر من مكان، لدرجة أنَّ أحد من تناولوا سيرته، كتب متعجِّباً كيف يستطيع هذا الجاسوس العتيق، الوصول إلى الأعلام في أغلب الأماكن التي حلّ فيها، مدَّعياً أحياناً أنَّه صديقه القديم، ومرَّات أخَر دون تعليل يذكر[٤].

---

(١) الرِّحلة : ص ١٩٩ .

(٢) Ali Bei, p. 253.

(٣) الرِّحلة : ص ٢٧٣ .

(٤) Ali Bei, p. 255.

وعلى ضوء ما تقدَّم، يمكننا أن نرسم إطاراً زمنيّاً ومنطقيّاً لارتباطات باديا وعلاقته بهذه القوى على النحو التالي:

حاول جاهداً أن يستثمر كلَّ الظُّروف لصالح مشاريعه وتحقيق طموحاته، لاعباً على كلِّ الحبال ومستخدماً كلّ الوسائل الممكنة لخدمة هذه الأهداف، بعد أن درس عصره وعرف كيفيَّة الوصول إلى ما يريد؛ اتَّصل بالإنجليز واستفاد من تجارب وخبرة الجاسوسيَّة فيها، ووعدها مقابل ذلك بخدمتها في مناطق محدَّدة مقابل تسهيلات معينة، ومع أنَّه كرَّس خدماته لبلاده في المغرب وبشكل مكشوف لا يقبل الجدل، إلاَّ أنَّ هذا لا يمنع جاسوساً محترفاً أن يتعامل مع أكثر من جهة، ويرسل تقاريره لعدَّة أطراف حسب ما تقتضيه مصلحة تلك البلاد خاصَّة بريطانيا وفرنسا، بدليل أنَّه ظلَّ على صلةٍ بهذه القوى وارتباط أوضح بعد طرده من المغرب، ففي قبرص يلتقيه ممثِّل بريطانيا، ويسكن في منزل أحد عملائهم ويستفيد من توجيهاته[١]، لكنَّه عندما يصل إلى مصر تظهر عليه علامات الضَّجر من الإنجليز، وينسب إليهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة ما حلَّ بها من خراب ومشاكل اقتصاديَّة[٢]، وحتى سرقة الآثار[٣]، كما ينتقد الرَّحالة الإنجليزي براون بما كتبه عن القاهرة، وأنَّها لا تعدو معلومات خاطئة في غالبها[٤]، ممَّا يشير إلى أنَّه اتخذ موقفاً وطريقاً آخر يصبُّ في صالح الفرنسيِّين، ولذا لم تغفر له المخابرات البريطانيَّة هذه الإهانة وربَّما الخيانة، فانتقمت منه وقتلته بالسُّم عندما استأنف رحلته من باريس مرَّة أخرى على رأي أغلب من تناولوا سيرته[٥]، وممَّا يؤيِّد هذا الرَّأي أيضاً خوفه وتوجُّسه من الإنجليز، ونلحظ

---

(١) الرِّحلة ص ١٩٩ .
(٢) نفسه ص ٢٣٥ .
(٣) نفسه ص ٢٣٦ .
(٤) نفسه ص ص ٢٦٣-٤ .
(٥) Ali Bei; p. 263. ; روبن بدول : **الرحالة** ص ٣٤ .

ذلك واضحاً في مغادرته للقاهرة في سفر مفاجئيشبه الهرب عندما أحسَّ أنَّ هذه المدينة تقع في مرماهم(١). أمَّا فرنسا فظلَّ على ولائه لها حتى وفاته، ولذا استحقَّ أن يمنح لقب "سيِّد" نظير ما أسداه لها من خدمات في الشرق(٢). وإن أشارت بعض الوثائق إلى ولائه للفرنسيِّين حسب القنصل البريطاني في طنجة الذي اتَّهمه بالعمالة لنابليون بونابرت(٣)، لكن وزير العلاقات الخارجيَّة الفرنسي بعث برسالة يُوصي فيها سفير فرنسا في طنجة بعلي باي ويدعوه إلى استمالته(٤)، وهذا يعني أنَّه لم يرتبط بفرنسا بعد.

كما لا نستبعد أيضاً أن يكون قد عقد صفقة مع الكنيسة الكاثوليكيَّة نفسها، يزوِّدها بموجبها بدراسة عن وضع هذه الكنيسة والعاملين عليها ومُرتاديها في المناطق التي يمرُّ بها، والدَّلائل تشير إلى ذلك، فلدينا صورة لباديا محفوظة في المكتبة الوطنيَّة بإسبانيا وقد كُتب عليها بأنَّه مبعوث من قبل s.m. الكاثوليكيَّة إلى أفريقية، كما نَلحظ اهتمامه الشَّديد بتفصيل الحديث عن وضع الجالية النَّصرانية في كلِّ الأماكن التي مرَّ بها، سواء في معابدها أو مذاهبها والقائمين عليها وتعداد أتباعها، وكان الحديث دقيقاً ومدعَّماً بالأسماء والأرقام في حديثه عن الكنيسة الكاثوليكيَّة في بيت المقدس بالذَّات، ودور كنيسة إسبانيا التي أحصى عدد قساوستها في هذه المدينة ومدن فلسطين الأخرى ومُساهمتها الفعَّالة فيها(٥).

---

(١) انظر : السنيدي: "مصر في مذكرات الرحالة الإسباني...، ص٢٩٧ .

(٢) Ali Bei; p. 261.

(٣) H. de Castries, "Napoleon et le Maroc" Dans, Revue Hebdomadaire, n.8 Avril 1908.p.3
نقلاً عن عبد الحفيظ حمَّان في: "رحلات الأوربيين...." ص١٤.)

(٤) هذا الوزير هو تاليران، وأنظر رسالته التي أرسلها في هذا الشَّأن في الطَّاهر مكِّي: "أول رحالة إسباني....." ص١٧٧.

(٥) **الرِّحلة** ط. مدريد ص٣٩٨، ٤٠٠ .

وقد نكون شططنا بالحكم وأبعدنا الرَّمي، فربَّما كان له دوافعه الأخرى على قول البعض، بعد أن تحرَّر من السَّياسة ومُؤامراتها خاصَّة بعد تجربته الفاشلة معها، فانتهج نهجاً كان الهدف العلمي من أولويَّاته خدمةً للجانب الأوروبِّي، فلم تكن رحلته إلى مكَّة ذات أغراضٍ سياسيَّة خفيَّة أو أغراض تبشيريَّة، وإنَّما كانت تدخل بالأساس في مجال الأنثربولوجيا على حدِّ تعبير عبد الحفيظ حمَّان(١)، لكن مع كلِّ ما ذكرناه آنفاً يصعب أن نتنازل بسهولة دون أدلَّة وإقناع تؤكِّد تخلُّصه من الدَّوافع الأخرى، لاسيَّما وأنَّ تحرُّكاته اللاَّحقة تؤكِّد الجانب الغير بريء في أهداف جولته.

٣..خطُّ مسار رحلته:

انطلقت خطوات رحَّالتنا هذا من جنوب إسبانيا، وابتدأت بمدينة طنجة التي حَلَّ بها في السَّاعة العاشرة من صباح التاسع والعشرين من شهر يونيَّة سنة ١٨٠٣م الموافق للتاسع من ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ، وانتهت بخروجه من الدَّولة العثمانيَّة في ١٩ من ديسمبر سنة ١٨٠٧م؛ زار خلالها: المغرب وطرابلس ومصر والحجاز وفلسطين وسوريَّة ثم الأناضول والقسطنطينيَّة، وفي أثناء الرِّحلة مرّ بقبرص وجنوب اليونان مع أنَّها لم تكن في خطةرحلته، وسنكتفي بعرض سريع لأهمِّ ما تعرَّضت له مذكِّرات هذا الرَّحالة من وقائع وأوصاف لها طابع التميُّز في مجال موضوعنا الذي نحن بصدد الحديث عنه.

٤.سجلُّ الرِّحلة:

مذكِّرات دومنجو باديا أو علي باي العبَّاسي وما سجَّله خلال رحلته تلك، سعى جاهداً أن يطبعه وينشره في أوروبا ولم يتأخر ذلك كثيراً، فقد طبعت

(١) "الحياة العامَّة في منطقة الحجاز...." ص٦٤.

مدوَّنات الرِّحلة في ثلاثة مجلدات وأطلس باللغة الفرنسيَّة بباريس سنة ١٨١٤م بعنوان : "رحلات علي باي العبَّاسي في إفريقية وآسيا" ولم يلبث أن ترجم وطبعه بالإنجليزيَّة والألمانيَّة سنة ١٨١٦م ثم بالإيطاليَّة عام ١٩١٧م، بينما تأخَّرت الطبعة الإسبانيَّة في مدينة بلنسية حتى سنة ١٨٣٦م[١]، وبين أيدينا نسخة تتكون من مجلدين باللغة الإسبانيَّة نشرت في برشلونة سنة ١٩٨٢م هي التي اعتمدناها في الترجمة.

وقد حظي هذا الكتاب بدراسات نقديَّة وتحليليَّة، من بينها تلك التي تصدَّرت طبعة الكتاب المذكورة، والتي قام بها خوان جويتيسولو، وأبرز فيها الأهميَّة القصوى لهذه الرِّحلة باعتبارها مصدراً غنياً وشاملاً عن المناطق التي زارها، مع المبالغات التي تتخلل أحاديثه أحياناً، كما أنَّها ثريَّة بما حملته من أوصاف ومعاينات انثروبولوجيَّة وعلميَّة وجغرافيَّة ودقَّة في وصف الحَجِّ بمشاعره ومشاهده، مما يمنح كاتبها مكانة مميَّزة بين أولئك المغامرين والرَّحالة والمستكشفين وموظَّفي الدَّوائر الاستعماريَّة، الذين مزجوا الدافع السِّياسي والمهني بالتعلق الشَّخصي بالحياة العربيَّة والافتتان بالإسلام[٢]، كما تتميز كتابات باديا بالأسلوب المنظم والمعرفة العلميَّة واللغويَّة التي تجعل منه وحده ممثِّلاً للعالم الحديث[٣]، وفي سجلِّ رحلته هذه قدَّم أول تقرير دقيق ومفصَّل عن الحَجِّ كما رآه وعايشه للغربيِّين[٤]، ومن بين الدِّراسات الجديرة بالإشادة، تلك التي قام بها

---

(١) بيرن : **اكتشاف** ص ١٨٥ . **Ali Bei**; p. 232.

(٢) **مقدمة الرِّحلة** .أمَّا موضوع إسلامه، فقد ناقشته في الكتاب المنشور بتوسع. أنظر: **رحالة إسباني ..**، ص٣٣-٩.

(٣) روبن بدول : **الرحالة** ص٣٤ .

(٤) بيرن : **اكتشاف** ص ١٨٨ .

عدد من الكتَّاب الإسبان وغيرهم بعنوان: "علي باي: حَاجٌّ كتلاني في ديار الإسلام" وقد سبقت الإشارة إليها.

وقد قسَّم كتابه إلى ستَّة أجزاء، الأول: خصَّصه لوقائع رحلته بالمغرب، بينما كرَّس الجزء الثاني: لزيارته لطرابلس وقبرص واليونان، أمَّا الثالث: فقد خصَّ به مصر، أمَّا الجزيرة العربيَّة فقد احتلت الجزء الرابع من سجلِّ مذكِّراته، وفلسطين وسوريا الجزء الخامس، وتركيا خصَّها بالجزء السادس والأخير.

ثانياً: الظُّروف التي مرت بها المنطقة زمن الرِّحلة

١. صراع وتنافس:

عندما نتطرَّق إلى هذا الموضوع، فإنَّنا نفتحُ ملفَّ العلاقات الواسع بين أقطاب الصِّراع آنذاك أيْ في بداية القرن التاسع عشر الميلادي وبين الجزيرة العربيَّة، لكن يَهمُّنا ما يلقي الضَّوء على الأهداف المحتملة للرَّحلة التي نحن بصدد الحديث عنها، فالإنجليز بعلاقاتهم المتشابكة ومصالحهم المتجذِّرة في المنطقة، وجدوا من يزيح الكثير ممَّا غَمُض منه، فظهرت دراسات وبحوث تدرس علاقتهم بالمنطقة، لكن الفرنسيِّين لم يجدوا الاهتمام الكافي، ولذا فسينصبُّ جهدنا في تحديد ملامح هذه العلاقة.

لقد كان وصول نابليون بونابرت إلى حُكم فرنسا، دافعاً قويّاً لتطلُّعاتها البعيدة المدى، ودخولها مُنافساً قويّاً ولدوداً للإنجليز في المنطقة العربيَّة، ونقصد ما عُرف أخيراً بمنطقة الشَّرق الأوسط، في ظلِّ أفول شمس الخلافة العثمانيَّة، وقد تَوَّجت مُخطَّطها هذا باستيلائها على مِصر، مقدِّمةً لمدِّ نفوذها لكامل المنطقة، التي شهدت تنافساً محموماً بين القوَّتين العظميين آنذاك وهما فرنسا وإنجلترا، فالفرنسيُّون بدؤوا في التَّخطيط لتوجيه ضربة حاسمة للإنجليز، تقضي على مصالحهم في الشَّرق الأدنى والهند من خلال هزيمتهم في مِصر، وقطع طريق البحر الأحمر الحيوي عليهم، ولعلَّ التفكير الفرنسي كان يهدف إلى أبعد من ذلك، فتحطيم إنجلترا من خلال الاستيلاء على مِصر حسبما صرَّح به نابليون[1]، ليست

---

(١) انظر: HOSKINS, **European Imperialism in Africa**. 1930, p.22. نقلا عن: شوقي عطا الله الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر** ص ٢٠. ; كما أنَّ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي تناول هذا الموضوع في ثنايا كتابه وبصفحات متعددة ومتفرقة. أنظر: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار** ٣ج ط. دار الجيل بلبنان، بيروت؟. وانظر الفصل الذي عقده هنري لورنس بعنوان: "الانحدار العثماني والتدخل الأوربي" في كتابه: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**. ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٩م ص١٦٧-١٧٩.

هي النِّهاية بل هي البداية، وندعُ أحد مهندسي هذا الهجوم وقنصل فرنسا في مِصر، يشرح لنا ذلك من خلال الوثيقة التي بعث بها لهذا الغرض، يقول ماجلون(١) Magailon في رسالته لحكومته: "*إذا أصبحنا سَادة البحر الأحمر فإننا نستطيع أن نهدِّد مصالح البريطانيِّين وأن نطردهم من الهند، فعن طريق السُّويس خلال الفترة المناسبة من العام، يمكن إرسال عدد من القُوَّات للهند على عدد قليل من البواخر، ولا يحتاج جنودنا في ذلك الطَّريق لأن يبقوا في البحر لأكثر من ستِّين يوماً بدلاً عن طريق رأس الرَّجاء الصَّالح الذي يَستغرق ستَّة شهور، وعن طريق السُّويس لن نكون معرضين لخسارة أكثر من ١٪ من رجالنا، بينما خسائرنا في الطَّريق الآخر لن تقلَّ عن ١٠٪ بأيِّ حالٍ من الأحوال*(٢)" . إذنْ الفرنسيُّون قادمون ويريدون وضعاً مُستقراً من خلال صداقةٍ مستقرَّة مع القُوى السِّياسيَّة الفاعلة والمطلَّة على البحر الأحمر في المنطقة، ولذا نجد نابليون حالما دخل إلى مِصر، يَشرع في فتح قنوات حوارٍ وصداقة مع الأشراف في مكَّة المكرَّمة، يتجلَّى ذلك واضحاً من خلال تلك المراسلات المتبادلة بينه وبين الشَّريف غالب بن مساعد والتي يُطمئنه في إحداها على وضع حركة الحجيج، وما تُقدِّمه مِصر للحجاز من مِنَح وهبات ورَيْع الأوقاف الخاصَّة بالحرمين، وأنَّه لن يطرأ عليها أيُّ تغيير(٣). لكن يبدو أنَّ الشَّريف يُدرك جيِّداً أن وضعه مع الإنجليز أكثر ضماناً على الأقلِّ لمراكبه التجاريَّة التي تعتمد على الهند في تجارتها، ولذا فقد وقف مع

(١) كان أحد التجار الفرنسيِّين في مصر منذ سنة ١٧٧٧م وانتهى الأمر باختياره فنصلاً لفرنسا في القاهرة سنة ١٧٩٣م. انظر: المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) انظر: .CharlesRoux, L,Angleterre, l,sthme de Suez et l,Egypte au 19e siecle 1922, p94 نقلا عن: شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر، ص ٢٠.

(٣) محمد زكريا عناني: " مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ونابليون" **مجلَّة الدَّارة**، عدد ٤ السنة الحادية والعشرون ص٧.





الانجليز ضمناً، بدليل دعمه وتأييده للمقاومة الشعبيَّة، التي تمثَّلت في حركة الشَّيخ الجيلاني قريب الصِّلة بالتَّاجر الذي سيرد اسمه في مدوَّنات باديا، وهذا الشَّيخ كان يدعو للجهاد ضدَّ الفرنسيِّين عندما دخلوا مصر، فلبَّى نداءه الكثيرون، وتبرَّع له آخرون بالمال، وركبوا من جدَّة على مراكب صغيرة تحت سمع وبصر الحكومة، التي لم تشارك رسميّاً إلاَّ أنَّها أيَّدت من طرف خفي، وقد أبلى هؤلاء بلاءاً حسناً في القتال(١). ليس هذا وحده فلو رجعنا إلى مُقابلة غالب لباديا عندما كان في مكَّة المكرَّمة(٢)، ثمَّ مطالبته له فيما بعد بتحرير خطاب لنابليون لحلِّ مشكلة مراكبه المحتجزة من قبل الفرنسيِّين، لوجدنا أنَّ حجم المشكلة وتفاقمها كان أكبر ممَّا نتصوَّر، وأنَّ علاقته بهم نَحَت مَنحى آخر يصبُّ في صالح الإنجليز، وهذا ما يُؤكِّده باديا نفسه حينما يقول في الفصل الثامن: "*يُنظر للإنكليز باعتبارهم أصدقاء مُخلصين للشَّريف، بسبب الدَّعم المباشر الذي يحصل عليه من خلال التِّجارة مع الهند*(٣)"، من جانب آخر ومن مُعطيات المقابلة وإقحام باديا في مُشكلة الشَّريف الخاصَّة مع الفرنسيِّين فيما بعد، يَظهر لنا بأنَّ ارتباط باديا بالفرنسيِّين معروف ومكشوف لدى الشَّريف، رغم محاولته التَّهرُّب ونَفي هذا الارتباط. ومحاولةً من باديا للفصل بين موقف السُّلطة الرسميَّة وبين المجتمع المدني في الحجاز، نجده ينقل لنا إعجاب سكَّان جدَّة بالفرنسيِّين الذي يعزوه إلى حسن تصرُّفهم في مِصر، وكأنَّه يقول إنَّ هؤلاء هم الرَّصيد الباقي.

أمَّا الطَّرف الأهم في تشكيلة القوى المؤثِّرة في المنطقة، والتي اتَّجهت لها اهتمامات باديا في رحلته هذه، فهي القوَّة الناشئة التي تُبشِّر بداياتها بمستقبلٍ

---

(١) بوركهارت: **رحلات**، ص١٩٣.

(٢) انظر الفصل الثاني من النَّص والتعقيب على الموضوع في الفصل الثامن حول طلبه تحرير خطاب لنابليون لحلِّ مشكلة مراكبه المحتجزة من قبل الفرنسيين.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٩.

واعد، هؤلاء أصبحوا محطَّ اهتمام الجميع بمن فيهم فرنسا، لدرجة دفعت جاكلين بيرن إلى القول: "*اعتقدَ البعض أنَّ علي بك كان في الحقيقة جاسوساً إسبانياً لنابليون ومن المحتمل أن يكون الإمبراطور قد رغب في أن يعلم شيئاً عن موقف مُسلمي الشَّرق الأدنى من الحركة الوهَّابية، وأن يكون قد فكَّر في استخدام هذه الحركة الجديدة لتحقيق مخطَّطاته في الشرق*(١)" ولعلَّ في هذا شيء من الصِّحَّة فمع أنَّ هذه الرحلة جاءت في أعقاب الفشل العسكري للحملة الفرنسيَّة على مصر، إلاَّ أنَّ الآمال الفرنسيَّة مازالت معلَّقة في المنطقة، وهزيمة معركة لا تعني خسارة الحرب في عُرف العسكريِّين من أمثال نابليون، ولذا نَلحظ في تقارير باديا التي حملتها مذكِّراته، الدِّقة والشُّمول حول هذه الدَّولة الفتيَّة والقائمين عليها ومبادئها وطموحاتها، وحاول جاهداً أن يصل إلى قائد حملتها ورئيس بعثتها إلى الحجِّ في هذه السَّنة التي تَواجد فيها باديا ونقصد به الإمام سُعود، واقترب منه كثيراً مع التَّحذيرات التي يُصدرها أصحابه، وكاد أن يلتقيه لولا خوفه من العواقب، فعيُون الشَّريف تُلاحقه وتَرمقه في كلِّ مكان يحلُّ به، "*لقد وجدتُ الطَّريق للوصول إلى السُّلطان سُعُود مُيسَّرة سهلة كما تمَّنيتُ، وذلك للتّعرف عليه بشكل أدقّ، لكنَّ ذلك سيُحرجُني أمام السُّلطان الشَّريف، الذي لم يترك لي أيّة حركة ولو عفويّة، إلاَّ وعدَّها ذات بُعدٍ سياسيّ، هذا الاعتبار جعلني أتخلّى عن تحقيق هذا الهدف*(٢)".

وإذا كان بيرتون الذي جاء بعد باديا بعشرات السِّنين يظن أنَّ الحركة السَّلفيَّة ويقصد بها الدَّولة السعوديَّة الثانية، تتطلَّع إلى التَّحالف مع أوروبا للاستيلاء على

(١) اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٨٥.
(٢) السنيدي: رحَّالة إسباني ....، ص١٧٠.

الحجاز والقضاء على البدع السَّائدة فيه[1]، فإنَّ الدَّولة السُّعوديَّة الأولى هي الأخرى تسعى إلى هذا الهدف، وإن كانت ليست بحاجة إلى التَّحالف بمعناه السِّياسي الصِّرف مع هذه القُوى لحساسيَّة هذا اللَّفظ من ناحية، ومدلولاته التي يرفضها القائمون عليها، لكنَّها بحاجة إلى تحييد هذه القُوى ذات النُّفوذ في المنطقة وضمان عدم تدخُّلها لتحقُّق هذا الهدف نفسه.

٢.الحالة السِّياسيَّة في الجزيرة العربيَّة عند وصول الرَّحَّالة

في وسط الجزيرة العربيَّة: تأسَّست الدَّولة السُّعوديَّة الأولى، عندما التقى الشَّيخ المصلح محمَّد بن عبد الوهَّاب بالأمير محمَّد بن سُعود سنة ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م بالدِّرعيَّة، وتمخَّض هذا اللِّقاء عن قيام الدَّولة، ومع أنَّ مرحلة التَّأسيس التي امتدَّت طيلة حُكم الأمير محمَّد بن سُعود، الذي يخرج عن نطاق التَّعريف بالدَّعوة وأهدافها وإخضاع المناطق المجاورة، إلاَّ أنَّ حُكم ابنه الإمام عبد العزيز بن محمَّد بن سُعود اعتُبر نقلةً نوعيَّةً في سَير الدَّعوة والدَّولة، فقد استطاع إخضاع مُعظم مُقاطعات نجد وتهامة وعسير ووصل إلى الحجاز وحدود العراق والخليج؛ وكان عهد ابنه الإمام سُعود الذي آلت إليه الأمور بعد اغتيال والده سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، مرحلة التَّمكين واستقرار الدَّولة، التي أكَّدت حُكمها لنَجد بكامل مُقاطعاته وبسطت نُفوذها وسيادتها على الحجاز وعسير وأغلب مناطق الخليج.

أمَّا الحجاز: فقد كانت تَخضع لسُلطان المماليك في مِصر حتى استولى العثمانيُّون عليها، بعد هزيمة هؤلاء سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، فأرسل شَريف مكَّة

---

(١) **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥م ٢/ ١٠ وهو الإيرلندي ريتشارد بيرتون، وقد كانت رحلته إلى رحلته إلى الحجاز ١٨٥٣م/١٢٦٨هـ.

آنذاك بركات بن أبي نمي مفاتيح الكعبة مع ابنه دليلاً للخضوع والطَّاعة، فشكره الخليفة العثماني وأقرَّه على إمارة الحجاز، وظلَّ هؤلاء يتداولون الحكم فيها حتى ظَهَرَت القوَّة الجديدة في وسط نجد، مَدعومة بدعوة إصلاحيَّة لها توجُّهاتها ومبادئها التي لا تحيد عنها، وكان من الطَّبيعي أن تدخل العلاقة بين الدَّولة السُّعودية وبين أشراف الحجاز في شدٍّ وجَذْب، ابتدأ عندما أوفد الإمام عبد العزيز بن محمَّد بن سُعود مندوبه إلى الشَّريف أحمد بن سَعيد سنة ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م لشرح أهداف الدَّعوة ومبادئها التي تقوم على مذهب أهل السُّنة والجماعة، وتدعو إلى مُحاربة البدع والخرافات ونبذ التَّبرك بالقبور والصَّالحين، ومع القبول الذي أبداه الشَّريف أحمد، إلاَّ أنَّ خَلَفه الشَّريف مَسعود قد اتَّخذ سبيلاً أكثر تشدُّداً، عندما أودع الوفد الذي أرسله الزَّعيم السُّعودي لمناظرة عُلماء مكَّة حول بعض القضايا الدينيَّة في السِّجن، كما أمر قاضي مكَّة بإصدار فَتْوى تُكفِّر الدَّعوة وأصحابها، ممَّا يعني تأزُّم العلاقات ودخولها مرحلةً جديدةً من الصِّراع السِّياسي والعسكري، ابتدأت بمنع الحجَّاج النَّجديِّين إلاَّ بعد أن يدفعوا الضَّرائب والمكُوس، وتطوَّرت في عهد الشَّريف غالب بن مساعد إلى إعداد حملةٍ عسكريَّة سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م قَصَد بها الدِّرعيَّة عاصمة الدَّولة الوليدة، مُفتتحاً مرحلةً من الصِّراع والنِّزاع، كانت نهايته خُضوع الحجاز لسُلطة آل سُعود.

ومع فشل هذه الحملة في تحقيق أهدافها إلاَّ أنها أوحت للإمام عبد العزيز بن محمَّد بالبدء بتحقيق مشروعه الطَّموح، وهو إخضاع الحجاز وضمه إلى مملكته، فأعدَّ حملةً كبيرةً انطلقت حتى وصلت إلى تُخوم الحجاز،جسَّ نبضٍ واختباراً لمدى القدرة العسكريَّة للأشراف، وظلَّت المعارك والمناوشات سِجالاً بين الطَّرفين، حتى رأى الشَّريف غالب بن مساعد أن يعقد الصُّلح ويَجنح للمسالمة،

خاصَّة مع يأسه من وصول مَدَد عسكري عثماني سواء من مِصر أو من الآستانة، كما أنَّ أغلب عمليَّاته العسكريَّة مُنيت بالفشل أمام حماس وإصرار القوَّة الجديدة على المقاومة بل والهجوم; وبعد اتِّصالات ومُداولات جرَت بين الشَّريف وبين ابن سُعود، تمَّ الاتِّفاق سنة١٢١٣هـ/١٧٩٨م على إنهاء حالة الحرب والجنوح إلى الصُّلح والسَّلام، على شَرط السَّماح بالحجِّ لوفود نجد، وعملاً بمُقتضى هذا الاتِّفاق فقد دخل الإمام عبد العزيز بن محمَّد مكَّة المكرَّمة حَاجّاً يُرافقه موكب ضخم، عاد بعده إلى بلاده.

لكنَّ الأمور لم تستمر على حالها، فقد عادت إلى التَّأزُّم والصِّراع الذي انتهى بالصُّلح مرَّة أخرى، بعدها دخل الأمير سُعود مكَّة المكرَّمة مُحْرِماً سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م فأدَّى فريضة الحجِّ، وأعطى الأمان لأهل مكَّة الذين أصبحوا تحت رحمة هذا الأمير وجنوده بعد هرب الشَّريف غالب وتحصنه في جدَّة، كما هَدَم القباب والأضرحة عملاً بما تقتضيه مبادئ الدَّعوة التي يحمل لواءها. على أنَّ الشَّريف غالب لم يتأخَّر كثيراً في طلب الصَّفح والخضوع للطَّاعة، فاستجاب له الإمام سُعود وأقرَّه على ولايته[1].

---

(١) عن هذه الفترة من الصِّراع، انظر: ابن بشر: عثمان بن عبد الله ; **عنوان المجد في تاريخ نجد** ج١ ط. دارة الملك عبد العزيز الرياض ١٩٨٢م. إسماعيل حقي جارشلي: **أشراف مكَّة وأمراؤها في العهد العثماني**، بيروت ٢٠٠٣م. أمين سعيد: **تاريخ الدولة السعودية**. ط. دارة الملك عبد العزيز. الرياض؟ ; ج. ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السعودية** ; جيرالد دو غوري: **حكَّام مكَّة**.

٣.الأوضاع السِّياسيَّة والعسكريَّة في مكَّة:

يلخِّص لنا باديا الوضع السِّياسي حين قدومه، ويصوِّره لنا بدقَّة:

"كانت **الحالةُ السِّياسيَّة** للبلاد فَريدة من نوعها عند وصولي، فالشَّريف هو الحاكم الفعلي والمباشر، ومع الاعتراف بمملكته، إلاَّ أنّه يُعتبر مُمثِّلاً سامياً فيها لسلطان القُسطنطينيَّة، وكان يدعو له في خُطبة الجمعة، في الوقت الذي كان فيه السُّلطان سُعُود يُسيطر على البلاد مع جماعته من الوهَّابيِّين، وقد مُنع ذكر سُلطان القُسطنطينيَّة في الجمعة التي قبيل عيد الأضحى[١]".

إذاً كانت الأوضاع متشابكة، والسُّيوف قد اجتمعت في غمدٍ واحد، فأيُّها سيحسم الأمر لصالحه؟

السُّلطان العثماني كان ينظر إلى الحجاز في هذه المدة على أنَّه أحد مناطق نفوذه، والشَّريف غالب ليس إلاَّ ممثله فيه، لكنَّ هذا الأخير، "كان يَحكم على أنه سلطان مُستقل، بواسطة وُلاته الذين يَحملون لَقب وزير، مع أنَّهم كانوا من عبيده الزُّنوج[٢]". وفي المقابل كانت الدَّولة السُّعودية الفتيَّة، التي يدفعها الطُّموح لبسط هيمنتها على الحجاز، قد فرضت طاعتها هناك، لكنَّها لم تكن قد أَحكمت سيطرتها تماماً، "ويبدو لي مع ذلك، أنَّه ما زال يحترم سُلطة الشَّريف[٣]"، الذي كان يحترم أوامرهم، وينفِّذ القوانين التي يفرضونها; مثلُ هذا الوضع، "نتجَ عنه، أنَّ مدينة مكَّة لا تَعرف من هو صاحبها الحقيقي[٤]".

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ....، ص٢٧٢-٣.وهو ما يوافق ٥ من ذي الحجّة ١٢٢١هـ/ ١٣ من فبراير ١٨٠٧م.

(٢) نفسه، ص٢٧٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** . ص٢٧٣.

(٤) نفسه، ص٢٧٣.

ويفيدنا أنَّ علاقات شريف مكَّة السياسيَّة كانت محدودة، فيما عدا علاقته بالدَّولة العثمانيَّة، "لا يوجد في البلاد قُنصل ولا مُفوَّض لدولة أجنبيَّة، والإنجليز هم وحدهم الذين لهم حُضور بين وقت وآخر في ميناء جدَّة، لأنَّ لهم حُظوة لدى النَّاس، فهم يُتاجرون معهم في الهند[١]".

والأوضاع تغيَّرت عندما أصدر السُّلطان سُعُود قراراً في ١٨ من ذي الحجَّة سنة ١٢٢١هـ الموافق للسَّادس والعشرين من فبراير سنة ١٨٠٧م، يقضي بمغادرة كلّ الجنود الأتراك والمغاربة التَّابعين للشَّريف في مكَّة، والرَّحيل خارج الجزيرة العربيَّة، وبناءاً عليه، تمَّ نَزع سلاح الشَّريف، وانهارت سُلطته، وانتقلت السُّلطة للدَّولة السُّعودية[٢]؛ "وهكذا انتهت هذه الثَّورة السِّياسيَّة دُون إراقة دِماء[٣]".

٤. الجيش السُّعودي في مكَّة:

تصادف وجود باديا مع وصول فرقة من الجيش السُّعودي الذي يسمِّيه: بالجيش الوهَّابي، وكانوا قادمين لأداء مناسك الحجِّ وإثبات وجودهم في هذه المدينة المقدَّسة، يصف هذا المشهد العسكري الذي يبدو عليه التَّنظيم والانضباط: "لقد شاهدتُ رَتلاً عسكريّاً، يُشكِّل طابوراً مُكوَّناً من خمسة أو ستَّة آلاف شَخص. كما بدا لي. مُتكدِّسين في طول الشَّارع وعرضه، ممَّا يستحيل معه الحركة، يتقدَّم القافلة إثنان من الفُرسان المسلَّحين برماح طولها قدمين، وتَنتهي هذه القافلة بخمسة عشر أو عشرين مُمتطين الجياد والجمال، يحملون الرِّماح

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٧٤.

(٢) لقد أكّد هذا الكلام ابن بشر في حوادث سنة ١٢٢١هـ وإن كان ذلك بإجمال دون تفصيل. أنظر: **عنوان المجد** ٢٩٢/١.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٧٥.

بأيديهم كرفقائهم السَّابقين، ويُلحظ أنّهم لا يحملون أعلاماً ولا أبواقاً ولا أيّة آلة أو إشارة عسكريَّة، كان بعضهم خلال هذه المسيرة يَرفعون أصواتهم بهذه المناسبة المقدَّسة، بينما آخرون يتلون الأدعية في صوت مُرتفع ومبهم كل على طريقته؛ وفي هذا الوضع المشار إليه، صَعدوا بانتظام إلى أعلى المدينة، وهناك تفرَّقوا على شكل فَصائل، كي يدخلوا إلى الحرم من باب السَّلام[١]".

ويصف سيرهم ودخولهم الحرم وانفراط عقد النِّظام الذي كان يميِّزهم، ويذكر أنهم لا يحملون معهم أيَّة عملة نقديَّة لذا كانوا يتحلَّلون من تلك الواجبات بدفع عشرين أو ثلاثين حبَّة من البارود، أو قطع صغيرة من الرَّصاص أو بعض حبَّات القَهوة[٢].

كما يتوقف عند صفاتهم الخَلقيَّة، ويشيد بأخلاقهم العالية، "لا يَسرقون على الإطلاق لا بالقُوَّة ولا بالحيلة، إلا عندما يَعتقدون بأنَّ هذا الغرض تعود ملكيَّته إلى العدوِّ أو الكُفَّار[٣]"، لكنه يرى أنَّهم لو تُركوا فسَيصلون إلى أقصى المعمورة لأنَّهم مُطيعون لرؤسائهم طَاعة عَمياء، ويتحمَّلون بصَمتٍ كلّ أنواع التَّعب.

وفي صعيد عرفة، يصف لنا قرب القافلة السُّعودية التي كان على رأسها السُّلطان سُعُود وأبو نُقطة، يقول: "في مدة مَحدودة رأيتُ اصطفاف جَيشٍ من خمسةٍ وأربعين ألفاً من الوهَّابيِّين، كلّهم - تقريباً - كانوا رَاكبين على الجمال، وفي

(١) نفسه، ص١٥٢.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٥٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٥٥. من المعروف أنَّ للإسلام سنناً وقواعد للتعامل مع الآخر سواءاً كان هذا مستأمناً، أو من غير المحاربين، وهؤلاء لهم حقُّ المحافظة على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم مقابل دفع مبلغ حدّده الشَّرع، فلهم واجبات وعليهم حقوق، ودعوة الشيخ لا تخرج عن هذا الإطار الذي حدَّده الإسلام حسبما ورد في كتب الشَّيخ وتلاميذه.





مَعيَّتهم آلاف الجمال الأخرى، التي تحمل المياه والخيام والحطب والأعشاب المجفَّفة لجمال القادة، ومجموعة تُقدَّر بمئتين من الخيول التي تحمل الأعلام المتعدِّدة الألوان مَرفوعة على الرِّماح، هؤلاء الخَيَّالة يَنتمون - حَسب ما قالوا لي - إلى الرَّئيس الثَّاني أبي نُقطة(١)؛ ويُمكن تَمييز سَبعة أو ثمانية أعلام منها من بين مجموعات أصحاب الجمال، ولكن بدون شِعار ولا طُبول أو أبواق، ولا حتى أيَّة آلةٍ عسكريَّة(٢)"؛ ويضع لنا تصوُّراً لشخصيَّة الأمير سُعُود، "شيخٌ محترم ذو لحية بيضاء طويلة، يتقدَّم الرَّاية الملكيَّة(٣)، تلك الرّاية ذات اللّون الأخضر التي تحمل شهادة التوحيد "لا إله إلاَّ الله" مَرسُومة بحروف كبيرة بيضاء.

ومن ناحية أخرى، يوضِّح لنا باديا موقف الشريف من هذه القوَّة الضَّاربة والقرار السُّعودي الذي يبدو أنَّه لم يكن مفاجئاً، بل كان نتيجة اتِّفاق مسبق، ويتساءل:

---

(١) هو حاكم إمارة عسير في المدة من ١٢١٥هـ/١٨٠٠م إلى ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م واسمه: عبد الوهَّاب بن عامر المتحمي الرفيدي العسيري من آل أبي نقطة، ومن أشد المؤيدين للدولة السُّعوديَّة الأولى. انتدبه الإمام سُعُود بالسير أمامه مع آخرين من رؤوس ووجوه القبائل في حجّته هذه ، وكان له دور رئيس في دخول السُّلطان سُعُود مكَّة المكرَّمة وضمها لدولته. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد** ٢٩١/٢؛ بيرين: **اكتشاف جزيرة العرب** ص١٩٨. وقد تكرر ذكره في مؤلَّف قاضيه محمد بن هاديء العجيلي المسمى: **الظلّ الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سُعُود الأولين**. المنشور بعناية وتحقيق: عبد الله أبو داهش، أبها ١٩٨٨م انظر أغلب صفحات الكتاب وهامش المحقق (٣٢) ؛ كما ورد اسمه وذكره في كتاب عبد الرحمن البهكلي: **نفح العود في سيرة دولة الشَّريف حمود**، ط. الدارة الرياض ١٩٨٢م ، ص ص ١٦٨، ١٦٩، ٢٢٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، (مقتله) ص ٢٥٥.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٦٧-٨.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٦٨ . وتذكر المصادر التي تناولت سيرته بأنّه: كان وسيماً بلحية طويلة، كثُّ الشّارب، ذو صوت عميق وهادئ ونفَّاذ، كما أنّه صافي العقل، مُتواضع في ملبسه ومسلكه، اشتهر بالكرم. أنظر: ابن بشر: **عنوان المجد** ٣٤٢/١-٣٥٢ ؛ ج. ج لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة في دليل الخليج**، ص٣٥.

فماذا عَسَاه أن يفعل خلال ذلك أمام استحالة مُقاومة هذه القُوَّات؟ هل يَبقى حبيساً أو مُختفياً؟ وفي أحسن الأحوال خائفاً من أيَّة هُجوم؟

ويفيدنا أنَّ الشَّريف قد أخذ احتياطه، "فالقِلاع مُجهَّزة بالتَّموينات، ومُستعدَّة للدِّفاع، والجنود العرب والتُّرك والمغاربة قد لزموا مواقعهم، لقد رأيتُ حرساً وخفراء في الحصون قد أغلقوا أبواباً كثيرة، وبكلمة واحدة: فإنَّ كلَّ شيءٍ قد أُعدَّ بسرعة لحالة اعتداء; لكنَّ اعتدالَ الوهَّابيِّين، ومُفاوضات الشَّريف، بدَّدت هذه المخاوف[1]".

وأثناء الوقوف على صعيد عرفات، كان الشَّريف قد أرسل جزءاً من جيشه مع أربع قطع من المدفعيّة، فيما يبدو أنه إثبات وجود واستعراض للقوة; كما انتدب جرياً على العادة. إماماً من قبله لإلقاء الخطبة في هذا اليوم، لكن كان مصيره الطَّرد من قبل السُّعوديِّين، وتولّى إمام السُّلطان السُّعودي الخطبة بدلاً منه[2].

كلُّ هذه المؤشرات تدلُّ على القرار السُّعودي، الذي اتُّخذ مسبقاً لإنهاء حكم الأشراف، وضمّ مكَّة إلى سلطة الدَّولة السُّعودية المباشرة، لكنَّه تأخَّر إلى ما بعد انتهاء مراسم الحجّ كما أشرنا، وكانت نتيجته التَّسليم دون مقاومة من الشريف، بل وانضمام مئتين وخمسين من خاصَّة جُنوده الزُّنوج إلى الجيش السُّعودي.

٥.الشَّريف غالب:

عرض لنا وقائع مقابلته للشَّريف غالب الذي كان يدير الأمور في مكَّة، وذلك بعد وصوله إليها، وذكر ما دار فيها من مداولات بدا فيها الشَّريف مدركاً لمرامي باديا وعارفاً بحقيقته ومدى ارتباطه بالفرنسيِّين، كما وصف ديوان

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٥٥.

(٢) نفسه، ص١٦٩.





الشَّريف وما يحويه بدقة[١]، وتحدَّث عن بعض رجاله خاصَّة مسئول زمزم "شيخ الزَّمازمة"، الذي حظي من الرَّحالة باهتمام خاص تعرَّضنا له عند الحديث عن بئر زمزم; لكنَّ اهتمامه بالشَّريف غالب كان طاغياً ذكره في أكثر من موضع ومناسبة، وتحدَّث عنه منصفاً مرَّة ومتحاملاً مرَّات، نعرض لبعض ذلك في السُّطور التالية:

كان الشَّريف غالب بن مساعد هو الوالي على الحجاز أثناء مجيء الرَّحالة[٢]، ولذا فقد حظي بتغطية شاملة عن سيرته وشخصيَّته وسياسته، ويسوق معلومة جديرة بالدِّراسة والتَّأمل تتعلق بحكم الأشراف للحجاز، "وقد جَرت العادة، أنّه إذا مات السُّلطان الشَّريف، فإنَّ الصُّعود إلى العرش يُحتكم فيه إلى السِّلاح، كما هو الحال في المغرب، حتى يَفرِض المنتصر سَيطرته على البلاد والعباد، وهذا في حال عدم الاتّفاق على وليٍّ للعهد[٣]".

ويستعرض سيرة هذا الرَّجل، الذي يرى فيه خصائل حميدة، تتمثَّل بالذَّكاء والدَّهاء والشَّجاعة، لكن تنقصه الحنكة والإدراك، وضعفه أمام رغباته، "فيتحوَّل إلى أنانيٍّ حقير يسعى لإرضائها"; هذه الأنانيَّة أو الجمع بين السُّلطة

(١) "كان الشَّريف . كما بدا لي . بين السَّادسة والثَّلاثين والأربعين عاماً من العمر، يميل إلى السُّمرة وعيناه واسعتان وجميلتان ولحيته عادية، وهو رجل خشن ومع ذلك فهو مرهف الإحساس، وملابسه تتكوَّن من بنيش أو قفطان خارجي وآخر داخلي على شكل نطاق وشالٍ كشميري وآخر من نفس النَّوع على شكل عمامة١، كان خلفه وسادة كبيرة وأخرى إلى جانبه، ووسادة أصغر أمامه عليها يتّكئ أحياناً. لم يكن في الصَّالة أيُّ أثاث آخر ولا زينة، وإنَّما هناك سجّادة كبيرة تُغطِّي البلاط".

(٢) هو: مُساعد بن سعيد بن سعد، وقد تولّى إمارة مكَّة سنة ١١٦٥هـ/١٧٥٣م وبعد سبع سنوات قضاها في الحكم، تمّ عزله إلاّ أنه عاد مرة أخرى إلى الحكم حتى وفاته سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م.(أنظر: حقي: **أشراف مكَّة** ص١٨٠-١٨٦) ; مسعود آل زيد: **تاريخ مكَّة المكرمة**، ص ١٤٤.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٧.

والتِّجارة[١]، انعكست على علاقته بالنَّاس والتُّجار على وجه الخصوص، وقد ساق لنا باديا أمثلة حيَّة تظهر هذا الجانب السيء في شخصيته[٢].

ويواصل حديثه عن ممارساته وسكنه، حيث يملك قصراً قرب الحرم أسفل قلعة جياد، لكن السُّعوديين أزالوه، وهو يَسكن في مجمَّع سَكني، مكوَّن من ثلاثة منازل مُلاصقة للجبل. ويعدِّد قصور الشَّريف غالب ومنتزهاته في أنحاء متفرِّقة من مكَّة[٣].

٦. قافلة الحجِّ الشَّاميَّة:

يفيدنا باديا أن هذه القافلة التي كان متوقَّعاً وصولها جرياً على العادة في حجِّ كل عام[٤]،لكنها لم تصل هذه السَّنة، فبعد أن تقدَّمت من الشَّام مع قُوَّة عسكريَّة ومدفعيَّة، وعدد كبير من النِّساء، لتقديم السِّجادة الفخمة التي تُقدّمها القُسطنطينية كلَّ عام إلى ضَريح النَّبي ﷺ في المدينة؛ اعترضها السعوديُّون محتجِّين على قدومها بهذا الشَّكل، المخالف للشَّرع، وبيَّنوا لبَاشا دِمشق "أمير

(١) توقف باديا عند هذا الموضوع وأكده مستشهداً بالوقائع، "فهو نفسه يَستأثر بجزءٍ مهمٍّ من هذه التِّجارة بواسطة مَراكبه، ولا أحد يستطيع أن يشحن أو يفرِّغ حُمولة سَفينة شَخص ما، إلاَّ بعد تحميل أو إنزال حُمولة مراكب الشَّريف، التي هي من المتانة والجودة وكبر الحجم، بما يُؤهِّلها لاستيعاب أكبر قسم من تجارة البحر الأحمر، على حساب التُّجار الذين تقلَّص نشاطهم، ووصلوا إلى أحطِّ درجات الاستعباد" السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٨-٩. ويزيد بوركهارت ذلك إيضاحاً بأنه كان يملك سفينتين حمولة كلّ منهما أربعمئة طن لتجارته مع الهند، كما كان يملك عدداً من المراكب التي يشغّلها في تجارته مع اليمن، وخاصّة في تجارة البنّ، كما كان تاجراً بارعاً في كلِّ فرع من فروع تجارة البحر الأحمر؛ **رحلات**، ص ٣١. وقد تعرضنا لذلك.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٧-٩.

(٣) نفسه، ص٢٦٦-٧.

(٤) جَرَت عادة الدَّولة العثمانيَّة إرسال قافلتين رسميَّتين للحجِّ كلّ عام، واحدة من الشَّام والأخرى من مِصر. للمزيد أنظر مثلاً: إسماعيل حقّي جارشلي: **أشراف مكَّة المكرَّمة وأمراؤها في العهد العثماني**. ص ص ١٠٧-١١٤؛ سيد بكر: **الملامح الجغرافية**، ص ص ٨٦-٨٨، ١٨٠-١.




الحجّ" بأنَّه لا يمكن قبول السّجادة المخصَّصة للضَّريح، وإذا أراد مُواصلة رحلته إلى مكَّة، فعليه أن يَصرف أوَّلاً الجنود والمدفعيَّة والنِّساء، ليُصبحوا بذلك حُجَّاجاً حقيقيِّين. لكنَّ الباشا لم يشأ الخضوع لهذه الشُّروط، فوجد نفسه مُضطرّاً للانسحاب والعودة من حيث أتى; وقد ادّعى بعضهم أنّهم فرضوا عليهم ضريبة كبيرة من المال، لكنَّ آخرين كذَّبوا هذا الزَّعم[١].

وهذه الحادثة تناولتها مصادر تلك المدة، ولم تزد كثيراً على ما أورده باديا هنا إلاَّ باختلاف في التَّفاصيل; فابن بشر يُؤكّد الحادثة، ويذكر أنَّ السُّلطان سُعُود أمر رجاله الذين أرسلهم إلى المدينة، لكي يمنعوا الحاجّ القادم من الشّام وإسطنبول ونواحيهما، وكان أميره في هذه الحملة عبد الله العظم باشا، لكنَّ ابن بشر يجعل للمنع سبباً آخر، وهو خَوف السُّلطان سُعُود من أنَّ الشَّريف غَالب سيَستغلّ فرصة مجيء هؤلاء ويُعرقل مساعي السُعُوديِّين لضم مكَّة، ولم يذكر شيئاً ممَّا أورده باديا هنا[٢]، بينما الجبرتي يفيد أنَّ "الوهَّابي" كما يُسمِّي أمراء الدَّولة السُّعوديَّة، أرسل إلى عبد الله باشا أمير الحجّ من يقول له: "*لا تأت إلاَّ على الشَّرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي، وهو أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطَّبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مُخالفاً للشّرع، فلما سمعوا بذلك رجعوا من غير حجٍّ ولم يتركوا مناكيرهم*[٣]".

وهذه فيما يبدو لنا هي الأسباب الحقيقيَّة للمنع، وليس ما يسوِّقه باديا خاصَّة عندما يجعل من اصطحاب النِّساء سبباً للمنع.

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ....**، ص١٦٢.

(٢) انظر: **عنوان المجد**، ٢٩٢/١.

(٣) **تاريخ عجائب الآثار** ١٨٨/٣، محمد أديب غالب: **من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**، دار اليمامة الرياض ١٩٧٥م ص ١١١.

ثالثاً: مكَّة في مذكِّرات الرَّحَّالة

كان هدف الرِّحلة المعلن منذ البداية، هو أداء فريضة الحجِّ من بين أهداف أخرى ذكرها[1]، ولذا فقد كان هذا الهدف والاستعداد له هو شاغله الأول، ومنذ أن وطأت قدماه الدِّيار المصريَّة حتى بدأت اتصالاته وتجهيزاته للحجِّ، ومع انتهاء شَهر رَمضان سنة ١٢٢١هـ (الحادي عشر من ديسمبرسنة ١٨٠٦م)، "أجريتُ الاستعدادات اللازمة لرحلتي إلى مكَّة، فكتبَ بعض أصدقائي إلى من لهم علاقة بهم سواء في السُّويس أو في جدَّة ومكَّة، لكي يُهيِّئوا لي سَكناً ويُؤمِّنوا لي الحماية في جميع الأماكن التي سَأزُورها[2]"; فخرج من القاهرة مع قافلة الحج المصريَّة، سالكاً طريق الحجّ المصري الذي ينطلق من السويس مجتازاً البحر الأحمر حتى سواحل الجزيرة العربية، ليتوقف في عدَّة محطات ومراسي، واصفاً إيَّاها بناسها وأحوالها وجغرافيتها، حتى وصل إلى ينبعليحرم ورفاقه من هناك، ويفيدنا باديا في هذا الصدد، أنَّهم بعد أن وصلوا ينبع، كان عليهم أن يحرموا، لكن بطريقة تسترعي الانتباه: " فلأداء ذلك، يجب أن يُلقوا بأنفسهم في البحر، للاغتسال وإجراء وضوءٍ عام بالماء العذب أو بالرِّمال[3]" ويواصل حديثه: "بعدها تُصنع

---

(١) يقول: "*بعد أن مكثتُ عدَّة سنوات في الدُّول النَّصرانية للدِّراسة في مدارسها علوم الطَّبيعة وغيرها من العلوم والفنون المفيدة للإنسان سواء في مجتمعه أو في ثقافته و دينه، عزمتُ في النِّهاية على القيام برحلة في البلاد الإسلاميَّة، وفي نفس الوقت أكملُ واجبي الدِّيني بالحجِّ إلى مكَّة، مُلاحظاً العادات والتَّقاليد وطبيعة الأرض التي أمُرّ بها هادفاً من وراء ذلك ألاَّ تكون هذه الرِّحلة الشَّاقة غير مفيدة لي ولأهل بلدي في تلك التي سأتخذها مكان إقامة دائم* " أنظر: **الرحلة**، ط. برشلونة، ص ١٥-١٦; السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٣٩-٤٠.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٠١.

(٣) صيغة الإحرام وصفته شرحها الفقهاء، لكن ما يهمُّنا هنا هو ما ذكره الرحالة في صيغة الغُسل الذي هو سُنَّة مُؤكَّدة وهو للنَّظافة وليس للطَّهارة، كما أنه محلُّ إجماع في المذاهب الأربعة، وإذا فُقد الماء سقط، ولم يُشرع بدله التَّيمم إذ لا نظافة بالتَّيمم، لكنَّ الوضوء فقط في حالة المرض أو جرح عضوٍ ونحوه. أنظر ذلك مفصَّلاً في: عبد الرحمن الجزيري: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، القاهرة ١٩٧٠م ١/٦٤١-٣.

أكوام من الرَّمل بالأيدي[١]، ثم يَصعدون إلى السَّفينة باللِّباس نفسه على إثرها" وهم يكرّرون دعاء التلبية[٢].

وبعد أن حطَّ رحاله في جدَّة لعدَّة أيَّام، انطلق صوب مكَّة واصفاً الطريق بهضابه وسهوله، والقافلة التي كانت ترافقه بصخبها وضجيجها، مفصِّلاً الحديث عن المعالم التي مرَّ بها.

وصل إلى مكَّة وحظيت باهتمامه وانبهر بما رآه، وهذا ما عكسته تدويناته التي نقلتنا إلى حواري مكَّة في بداية القرن التاسع عشر ودكاكينها وحركتها الدائبة، ومساكنها وشوارعها، والناس وأشكالها، والوافدين عليها بصفاتهم وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما صوَّر لنا الحرم المكِّي الشَّريف بكل تفاصيله، والمشاعر وإيقاعاتها، ولم ينس الأحداث السِّياسيَّة وتطوراتها، لاسيَّما وقد واكب دخول الجيش السُّعودي إلى مكَّة فوصفه بدقة، وأشاد بالدَّعوة الإصلاحيَّة التي تتبناها الدَّولة السُّعودية، بالإضافة لموضوعات أخرى اجتماعيَّة واقتصاديَّة وعلميَّة، أمدَّنا بمعلومات وافية عنها، فهو يشدُّ المشاهد بتفاصيله الدقيقة عن الحياة المعاشيَّة للنَّاس بصخبها وضجيجها، ويصف من قلب الحدث وقائع الطَّواف والسَّعي، وبقيَّة المناسك في عرفات ومنى ومزدلفة وحتى غسيل الكعبة الذي شارك في فعاليَّاته.

يَشدُّه المكان وروحانيَّته، والنَّاس وبساطتها، والأحداث بتسارعها، ويحاول أن يضع لقارئيه لوحة تصويريَّة حقيقيَّة، ينقل لهم فيها مَرئيَّاته ورُآه حول البشر والطَّبيعة والمدينة بما فيها؛ ونستطيع أن نقول: إنَّه نَجَحَ في التَّصوير والنَّقل، لكنَّه أخفق في التَّحليل في أحيانٍ، ونجح في أُخَر.

---

(١) لم أتوصل لتعليل لذلك، لكن ممَّا يَظهر لي أنه من البدعيات المستحدثة.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٢٠.

صورة مكَّة:

حاول باديا أن يرسم لنا لوحة توضيحيَّة تُمثِّل مُخطَّط مكَّة، لكن تعذَّر ذلك بوجود الجبال التي حالت دون حصوله على مَنظر مُتناسق للمدينة وهذا ما جعله يتخلى عن الفكرة.

ويبدي اندهاشه من مباني مكَّة الجميلة، ويرجِّح أنّ "هذه المباني أخذت طابعاً هنديّاً أو فارسياً وصل إلى مكَّة خلال حُكم الخلافة في بغداد[١]"; ويصف لنا هذه البيوت بدقَّة متناهية، في غرفها وشبابيكها ومشربيَّاتها، يقارن بينها وبين ما هو موجود في أوروبا خاصة في مجال التهوية، ومادة بنائها هي الحجارة مما أعطاها متانة، وتتكون من ثلاثة أو أربعة طوابق،"وواجهاتها مُزخرفة بزخارف ناتئة ورسومات، ممَّا يُعطي مظهراً جميلاً، لكنَّ الغريب في الأمر، هو الأبواب التي لا تَحمل أيّة زخرفة[٢]"، ويجول بنا داخل البيت المكِّي حتى يصل إلى السطوح التي أحيطت بسواتر لتمنع رؤية النساء عندما يخرجن إليها; ويصل إلى القول بأنَّ: "جَمال الأبنية يُؤكِّد الماضي النَّاصع لمكَّة، ومن ناحية أخرى فإنَّ سُكَّان هذه المدينة لديهم الرَّغبة الأكيدة في المحافظة عليها لجذْب الحجَّاج، حيث إنَّ إيجار البيوت يُعتبر مورداً رئيسيّاً لهم[٣]".

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٠.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٢٠-١. للمقارنة أنظر ما سطَّره بوركهارت حول الشَّوارع والمباني في مكَّة المكرَّمة، في: **رحلات في شبه جزيرة العرب** ص ١٠١-١٠٣. ويُلاحظ التَّقارب في الوصف مع اختلاف طفيف في التَّفاصيل. كما تطرّق لهذا الموضوع أيضاً إبراهيم رفعت باشا بشيء من التَّوسع. أنظر: **مرآة الحرمين**، ١/١٧٨-١٨٤.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢١.



ويلفت نظر الرَّحالة ذلك العـدد الكبير من **السِّجاد والوَسائد** الوثيرة الموجودة داخل البيوت، ويعدُّ ذلك من بَقايا الغِنى القديم للمكيِّين، إلى درجة أنّه حتى في بيوت ذوي الفقر المدقع، توجد سَجاجيد ثمينة ولو أنّها قديمة.

طبيعة مكَّة وتضاريسها:

يتحدث باديا في هذه المواضيع ويحاول أن يصل إلى تركيبة جبالها ومكوناتها(١)، ويفصل الحديث في ذلك(٢)، ويقول: "من المحتمل أنَّ البلاد مليئة بالمعادن، ومع ذلك فهذه الكنُوز سوف تبقى مخفيّةً مادام الجهل سَائداً بين النَّاس، ويُستفاد فقط من نوع من أنواع الكبريت، التي هي في طريقها إلى الاكتشاف(٣)".

(١) يصنّف الجغرافّيون طبيعة مكَّة الجغرافية على أنّها تتألّف في مُعظمها من صخور القاعدة الأركيّة القديمة الناريّة والمتحولة، تمتدّ هذه وسط مجموعة معقَّدة من الأودية والشِّعاب الغرينية التي تُحيط بها تلال جرانيتيّة جرداء شديدة الانحدار، أنظر: عبد الله بن صالح الرقيبة: "الأماكن المقدسة والحج "، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، م٣ ق١ ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٢) يقول باديا: "تتكوَّن **جِبال مكَّة** من صُخور الشِّست أو صَفائح الكوارتز، وفي بعض أجزائها من البازلت أو من نوع من صُخور مجزَّعة، وهي بعمومها تقريباً من الكوارتز في كلِّ البلاد، فالرِّمال ليست أكثر من حُبيبات الكوارتز، والقاعدة الأساسيَّة لكافَّة الصُّخور هي الكوارتز الصَّافي; أمَّا الكبريت الزِّنكي المتبلور أو الصُّخور المجزَّعة والفلسبار والميكا والتشرلو، فهي أجزاء عرضيَّة تختلف باختلاف الجبال، لكن الكوارتز يشكِّل التركيبة الرئيسيَّة".

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ....، ص٢٦٥. ولمزيد من الاطلاع، راجع: عبد الله ناصر الوليعي: "البنية الجيولوجية والتضاريس "، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، م٣ ق١ ص ٤٣٦.

الطَّقس:

قد تكون معلوماته في هذا الجانب لا تحمل جديداً، لكن نعرضها للمهتمِّين، فمكَّة. حسب تعبيره. تشبه "الفرن" مع أنَّه يقول: " إنَّ أشدّ حرارة لاحظتُها خلال مدَّة إقامتي، كانت ثلاثاً وعشرين درجة ونصف في اليوم الخامس من شهر فبراير عندما تغيب الشَّمس، وأقلُّها كانت ستَّ عشرة درجة في اليوم السَّادس عشر من نفس الشَّهر في السَّاعة السَّابعة صَباحاً[(١)]"، ومن المعلوم أنَّ هذا الشَّهر من أشهر الشِّتاء الأكثر برودة.

وقد حرص أن يرصد حركة الريَّاح واتِّجاه السُّحب، ويفيد أنَّه طِيلةَ مدة إقامته في مكَّة، كانت السَّماء تَتناوب فيها الغُيوم، مع رطوبة في اللَّيل، كما هو الحال في البلدان المعتدلة، ولم يلحظ تغييرات فُجائيَّة في الحرارة أو الرُّطوبة، كما يحدث في جدَّة.

ويطرح تساؤلاً عمَّا تكون عليه حرارة الصَّيف في هذه المدينة، إذا كان هذا هو الوضع في أيام الشِّتاء، "فلك أن تَتخيَّل الحرارة السَّائدة هنا في فصل الصَّيف![(٢)]".

ويسجِّل ملحوظة جديرة بالاهتمام: "يَبدُو أنَّ **جَوّ مكَّة** صِحِّي، فليس هناك الكثير من المرضى، ولا حتى الأمراض المزمنة، ولكن لا يُوجد في الوقت نفسه شُيوخ بعُمرٍ مُتقدِّم، كما لا يُوجد عُميان، ولا أمراض عُيون، مثلما هو شَائع في مِصر[(٣)]".

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٥١-٢. لقد وضع لنا إبراهيم رفعت باشا قائمة بدرجات الحرارة طوال أشهر السَّنة في مكَّة المكرَّمة مع وصف لهطول الأمطار. أنظر: **مرآة الحرمين**، ٢٠٦/١. كما كانت محلّ اهتمام الباحثين الجُدد، أنظر على سبيل المثال: عبد الله بن صالح الرقيبة: "الأماكن المقدسة والحجّ"، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٩٩م م٣ ق١ ص ٢٦٤.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٥٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٥٣.





الحرم ومرافقه:

في مدخل المدينة المقدسة، كان في استقبالهم المغاربة الذين كانوا مجاورين في مكَّة، لاسيَّما وأنَّه كان مرافقاً للحجَّاج المغاربة[1]، فمن الطبيعي أن يكونوا في استقبالهم، ليس اهتماماً وإنَّما طلباً للرِّزق، بدليل تحذيرهم له ممَّا يقدِّمه الآخرون لاحتمال تسميمه!! كما عرضوا عليه تأمين السَّكن، الذي نافسهم فيه آخرون، لكن حسم الأمر مرافقوه من جدَّة،فحجزوا له منزلاً قريباً من بيت الشَّريف، يرضي غروره وطموحه، مع قربه من الحرم.

وهنا يتجلَّى دور السَّماسرة، واحتكارهم لوساطة التَّأجير في المسكن والمركب وخدمة الحاج، الذي ما زال حتى عصرنا الحاضر، فإذا كان أولئك الوسطاء من المغاربة في تلك المدة، فقد برزت جنسيات أخرى في مواسمنا الحاليَّة.

وعند دخول الحرم ورؤية الكعبة، يعلن باديا عن مشاعره بقوله: "إنّ صورة الموكب المحيط بي، والرِّواق ذي الأعمدة الممتدَّة على مدى اتِّساع النَّظر، والسَّاحة الكُبرى، ثمّ بيت الله المغطَّى من الأعلى إلى الأسفل بالقُماش الأسود، والمحفوف بالمصابيح، في هذه اللَّحظات المواتية مع هَدأة اللَّيل، ودليلنا الذي كان يتكلَّم أمامنا بكلِّ ذلٍّ وخُشُوع، شَكَّل أمامي لوحةً مهيبةً سوف لن تُمحى من مُخيَّلتي إلى الأبد[2]".

ويتطرق إلى مواضيع عدَّة، تتعلق بوقائع الطواف والسَّعي وما يصاحبها من أفعال، ويصف الحرم ومرافقه، ويلفت نظرنا في بعض الأمور الغير مطروقة، وهذا ما نعتبر عرضه مهماً للمهتم والقارئ.

---

(١) نظراً لإقامته الطويلة بالمغرب ومعرفته لهجة المغاربة، ولذا نجد ارتباطه بهذه الجالية في القاهرة وعدَّ نفسه واحداً منهم.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٣٨-٩.

انخفاض مستوى صحن الحرم "المطاف":

يتوقف باديا عند ظاهرة لفتت نظره تتعلق بانخفاض مستوى الحرم عن محيطة، ويعلِّل ذلك باستنتاجات يحسن بنا الوقوف عندها ومناقشتها:

"من السَّهل مُلاحظة أنّهم عندما أرادوا تَصميم **الصَّحن الكبير** وأقسام الحرم الأخرى، بدلاً من أن يحفروا من جهة واحدة، ويردمون الجهة الأخرى بالتّراب لتسوية الأرض وجعلها في مُستوى واحد، فإنّهم قد حفروا كل الجهات، بحيث أنّه إذا أُريد الدّخول للحرم من أيّة جهة كانت، فيجب النّزول عدَّة درجات، لأنّه أصبح أكثر انخفاضاً بأقدام عديدة عن مُستوى الأرض والشَّوارع التي تُحيط به"، ويواصل حديثه: "ولو افترضنا أنَّ مُستواه الطَّبيعي قد ارتفع إلى ما يُوازي الأرض المحيطة بالكعبة، وحتى مُستوى الشَّوارع المحيطة به، وهو ما كان في حالة البناء القديم المنفصل; الأمر الذي يُمكن معه القَول أنَّ ارتفاع صالة وباب الكعبة، يتناسبان مع المستوى العام، ولهذا لم يكن هناك حاجة لسلَّم الدُّخول، والواقع في هذه الحالة يفرض أنَّ الحجر الأسود، كان في مكان مُختلفٍ عن مكانه الذي يُوجد فيه حَاليّاً، إذ يُلاحظ انخفاضه عن مُستوى الباب بمقدار قَدمين تقريباً; وقد يقول كَافر باحتمال عدم وجوده، أو أنّه كان تحت الأرض، أمَّا بالنّسبة لي فلم يَخطر ببالي مثل هذا التَّفكير حول هذه الهبَة الإلهيَّة(١)".

وفي واقع الحال، فإنَّ تحليل باديا المنطقي في ظاهره، تُناقضه وترفضه حالة الحرم ووضعه مُنذ القدم، ففي حالة التّسليم بصحَّة نظريته، بأنَّ ساحة الحرم قد أُزيل تُرابها وخُفِّض مُستواها عمَّا حولها، فإنَّ هذا يَشمل ساحة الحرم بكاملها بما فيها موقع الكعبة قبل بنائها، وعليه فإنَّ وضع الحجر الأسود الحالي هو في موضعه

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٨٩-١٩٠.

المناسب لمستوى قامة الحاجّ والمعتمر والزائر منذ أن بُنيت الكعبة; خاصَّة لو توقّفنا عند حادثة جَرت أحداثها سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م عندما هَطلت على مكَّة أمطار غزيرة، غَرقت على أثرها، وملأ الوحل والطَّمي ساحة الحرم، وتضرّرت الكعبة نفسها، فهبَّ الأهالي واستغاثوا بالخليفة آنذاك السُّلطان العثماني مُراد خان فأُعيد ما تهدّم منها، وأزيلت تلك المخلفات، ويمكن أن تكون الفكرة التي ذكرها قد نُفِّذت آنذاك، لكن تُواجهنا مُشكلة قد تجعل من هذه الفكرة مجرّد تخمين، ذلك لأنَّ الحَجَّاج لمّا أعاد بعضاً ممّا بناه ابن الزُّبير، كان مما عمله أنه أغلق الباب الغربي ورفع الشَّرقي إلى مِقدار النِّصف، لأنَّ ابن الزُّبير جعل الباب من مستوى الأرض إلى الأعلى بطول أحد عشر ذراعاً، فترك الحجَّاج منه ستة أذرع وشبر وسدّ الباقي من أسفله[١]. وعندما بحثتُ عن تعليل لذلك فلم أجد عند من اطّلعت عليهم من يُفيد بالسَّبب الذي كان وراء رفع الباب، ولماذا سوّاه ابن الزُّبير رضي الله عنه بالأرض؟، فوجدتُ أخيراً إشارةً في رواية مُوجزة أوردها الأزرقي تَنسف رواية رحّالتنا من أساسها، تقول هذه الرِّواية في حديث مَرفوع إلى النَّبي ﷺ: " أنه قال لعائشة رضي الله عنها: *إذا فتح الله لي إن شاء الله، رددتُ الكعبة على ما كانت عليه على عهد إبراهيم، فأدخلتُ من الحِجر فيها، وجعلتُ لها باباً بالأرض وجعلتُ لها باباً آخر، فإنّ قريشاً إنّما جعلوا الدّرجة، لأن لا يدخل الناس إلاّ بإذن*[٢]"; كما أورد مُسلم ما يزيدها إيضاحاً ويقوّيها، فقد أخرج في صحيحه رواية نصُّها: "قال النَّبي ﷺ لعائشة: وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: قُلت لا، قال: تعزُّزاً أن لا يدخلها إلاّ من أرادوا، فكان الرَّجل إذا أراد أن

(١) الأزرقي: **أخبار مكَّة**، ١/٢١٣-٢١٤ ; باسلامة: **تاريخ الكعبة**، ص ص ٢٣٦ .
(٢) **أخبار مكَّة**، ١/٢١٤.

يدخلها، يدَعونه يَرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه، فسقط[1]". وهذا يعني أنَّ الباب وصالة الكعبة كانا في مُستوى سَطح ساحة الحرم وليس الأرض المحيطة به، ورَفْع الباب جاء لأسباب احترازيَّة من قبل القائمين عليه لأن لا يصبح مهيّئاً لدخول من هبّ ودبّ من الناس، ولتعزيز سيطرة ونفوذ القائمين عليه من القرشيِّين.

إذن نستطيع القول، أنَّ اجتهاد الكاتب هنا واستنتاجه أثار بقصد أو بدونه، شبهة أو تشكيكاً قد يحدث إرباكاً لمن ليس له دراية بشئون البيت الحرام وعمارته.

الحجر الأسود:

مُشكلة أخرى تُواجه الكاتب هنا هو عَدم اطِّلاعه على تاريخ الحجر الأسود والمشاكل التي مرَّ بها من كوارث طبيعيَّة واعتداءات بشريَّة، أسهب في ذِكرها مُؤرِّخو مكَّة المكرَّمة[2]، ولذا جاء وصفه سطحيّاً إن لم يكن متحاملاً.

بِئْرُ زَمْزَم:

حظيت هذه البئر وماؤها باهتمام باديا، ولذا فقد خصَّها بحيز مهمّ مما كتبه عن الحرم، وبما أنَّ ما كتبه متوفر بالكتاب المنشور، فسنتوقف عند بعض المسائل المهمَّة التي أثارها، والتي قد توضح بعض الأمور الغامضة.

هناك عقبات شتَّى أمام من يريد أن يصل إلى الماء في أسفل البئر ذكرها الرحالة، معلِّلاً ذلك بأنَّ: "كلُّ هذه العقبات لا تهدف إلاَّ لمنْع الحجَّاج من استخراج الماء بأنفسهم، وبالتّالي حِرمان خَدَم البئر من المكافآت الإضافيّة، التي

---

(١) **صحيح مسلم** (كتاب الحجّ) ٢/٩٧١

(٢) انظر عن هذه المشاكل والكوارث، الأزرقي في **أخبار مكَّة** ١/٣٠٧-٣١٠; باسلامة في: **تاريخ الكعبة**، ص ص ١٦٤-١٧٣.




يحصلون عليها مُقابل عملهم[١]". وحول ماء زمزم نفسه، يشير إلى أنَّ: "درجة حرارة عُمق البئر عند الخروج تكون أكثر دفئاً من حرارة الطَّقس الخارجيّة، ممَّا يجعل مَاءها فاتراً، وهو ما يدلُّ على وجود مُسبِّب خاص لهذه الحرارة الشَّديدة في عُمق البئر، ومع كل ذلك، فإنَّ مَاءها صحِّيٌّ وكثير جدّاً، لدرجة أنّه في وقت الحجّ يُستخرج منه آلاف الدِّنان دون انخفاض مُستوى الماء فيه[٢]".

وقد فحص هذا الماء وأجرى عليه تجاربه، وخرج بنتيجة مفادها: وجود نوع من غَاز ما، كان سبباً في اختلاف درجة الحرارة[٣]، كما قام بفحص الماء نفسه وقارنه بماء الآبار المجاورة للحرم، وخرج بنتيجة مفادها: "أنَّ ماء كلّ هذه الآبار[٤] يحوي نفس طبيعة وأصل تلك الموجودة في مَاء زمزم، ولكن ليس لتلك الآبار الأُخرى خاصيَّة البركة التي وَهبتها العناية الإلهيّة لهذا البئر الرّائع فسبحان الله[٥]."

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٩٣.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٩٣.

(٣) يقول مُحقِّق كتاب **أخبار مكَّة** للأزرقي رُشدي الصَّالح ملحس: " ومَاء زمزم مَاء قَلويّ تكثر فيه الصُّودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك وحامض الأزوتيك والبوتاس ممَّا يجعله أشبه شيءٍ بالمياه المعدنيَّة." (٦/١). وقد وردت الأحاديث الشَّريفة في فضل مَاء زمزم وأنه لما شُرب له،وقد بَسَط ابن القيّم في كتابه " **الطب النبوي** ط. بيروت"الحديث حول خوّاص هذا الماء وما له من مزيّة. (ص ٣٠٦-٧).

(٤) يقول:"لقد فَحصتُ كلَّ بئرٍ على حده، فوجدتُ أنَّ عُمقها واحد، والماء المستخرج منها له نفس حرارة وطَعم وشفافية مَاء زمزم، وفي الشَّوارع الملاصقة للحرم، يُوجد أربع آبار عُموميَّة مُتشابهة مع بعضها البعض تماماً، ومثلها أيضاً تلك الآبار الموجودة في مناطق أخرى مُتفرّقة من المدينة; وقد اقتنعتُ بعد تحليل دقيق لعمق الآبار وأوصافها ودرجة حرارتها وطعمها، بأنَّ الماء يأتي من عين واحدة، مُستواها خمسة وخمسون قدماً تحت مُستوى سَطح الأرض، تتجمّع مياهها من ترشُّح الأمطار; ومُلوحة الماء مردُّها إلى تحلُّل مادة من نوع الجبس مُختلطة بالتّربة، ومنها يظهر بشكل واضح، أنَّ ماء كلّ هذه الآبار ....". السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٢٦.

(٥) لن نزيدَ على تعليقه هنا بأنَّ البركة الإلهيّة هي التي منحته صفَة التّميز عن غيره من المياه والآبار، فإيماننا بقُدسيّة المكان وخاصيّة التعبُّد فيه، أخذناها بالتَّسليم والإيمان المطلق حسبما تلقّيناها في أصول ديننا الحنيف، وهي الكتاب والسّنة وما تواتر من أفعال الصَّحابة عليهم رضوان الله.

وهناك ما لفت انتباه وفضول باديا في هذا المجال، وهو العدد الكبير لأواني توزيع ماء زمزم، وشغلها لعدد من المخازن، وبعد أن يصفها لنا، يضيف معلومة لها أهميَّتها:

"ما أن يصل إلى مكَّة حَاجّ من ذوي المنزلة، حتى يُسجِّلوا اسمه في الكتاب الكبير لدى رئيس زَمزم، وفي الوقت نفسه فإنَّ هذا الرَّئيس يُعيِّن خادماً لتزويده بالماء، وتوصيله إلى بيته في مَواعيد مُحدَّدة، وعلى هذه الدِّنان يُكتب اسم هذا الحاجّ بالشَّمع الأسود، بالإضافة إلى بعض الكتابات الصُّوفيّة الأخرى[1]";ولا ندري لماذا حكم على هذه الكتابات بأنَّها صوفيَّة؟ مع أنها لا تخرج في مجملها عن إطار الدَّعوات الصَّالحة والتَّمنيات الطيِّبة للحاجّ.

ماء زمزم لتصفية الخصوم:

استحوذ على اهتمام الرَّحالة ما أشيع عن استخدام ماء زمزم لأغراض غير شريفة، فعندما وصل إلى مدخل مكَّة، " كان هناك الكثير من المغاربة، الذين أحاطوا بي وبأيديهم أباريق صغيرة مملوءة بماء زمزم، قدَّموها لي لأشربَ منها، راجين ألَّا أشرب من غيرها، ..كما أسرُّوا إليَّ ألاَّ أشرب أبداً من الماء الذي يعرضه عليَّ رئيس بئر زمزم[2]"; ومع أنَّ موضوع استخدام ماء زمزم لتصفية الخصوم كان له أصل ... إلا أنَّ المسألة تختلف، والمؤامرات السياسيَّة والدسائس قد تستخدمه لأجنده خاصة بها، لكن صاحبنا ليس له في العير ولا في النَّفير، فلم يكن من أصحاب الشأن أو ممن يُخشى منهم، وسنرى أن هذه النَّصيحة التي تلقاها من مستفيد محتكر، ستكون قاعدة يسير عليها في توخِّي الحذر عند شرب كوب من ماء زمزم.

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٩٦.

(٢) نفسه ...، ص١٣٧..





يتحدث بهذا الصَّدد عن شيخ الزمازمة، وكيف أصبح مَوضع ثقة كاملة للشَّريف، فأوكل إليه مهمَّة تصفية خصومه السياسيِّين وغير المرغوب فيهم، يقول باديا: "اطمئن أيُّها القارئ ولا تشعر بأيِّ خوفٍ من ناحيتي; هذا الرُّجل الخطير تعرَّف عليَّ مُنذ الوهلة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى زمزم، وكان باستمرار يفتعل لي أُبَّهة وولائم فاخرة، وفي كلِّ يوم يبعث لي بجرَّتين صغيرتين من مَاء البئر الرَّائع; كما كان يتجسَّس عليَّ عند ذهابي إلى الحرم، ويتودَّد إليَّ بلُطف ودماثة مُتناهيتين، ويُقدِّم لي إناءً مملوءاً بالماء المعجزة، وأنا أرتشفه دون تردُّد حتى القطرة الأخيرة، هذا الرجل[١] كان يُراقب أيضاً تصرُّفات كلِّ الباشوات والشَّخصيَّات المهمّة التي تصل إلى مكَّة، ولأدنى شكٍّ أو هوى، وبأمرٍ من الشَّريف، هذا الأجنبي التَّعيس يَختفي من الوجود، إذ أنّه من كُفران النِّعمة رَفض هذا الماء المقدَّس المقدَّم من رئيس البئر، لذلك أصبح هذا الرّجل وبهذه الوسيلة، مُتحكِّما بحياة كلِّ الحجَّاج، حيث تمَّت تصفية الكثير من الضَّحايا[٢]".

وينسج على هذه المعلومة التي لم نتوصل لدليل قطعي عليها، أحكاماً بأنَّ أشراف مكَّة ومنذُ زمن قديم كان لديهم شَخص مَسؤول عن التَّسميم في البلاط، ويفيد أن ذلك مَعروف في القاهرة والقسطنطينية، لدرجة أنَّ الدِّيوان بعث في عدد من المرَّات بباشوات وقوم مهمين إلى مكَّة، للتَّخلُّص منهم بهذه الطَّريقة;[٣] ومع ورود إشارات تفيد بتخلُّص الشريف غالب من خصومه أو منافسيه بطريقة أو

(١) في الأصل " اللَّعين" استبدلت بالرَّجل لأنَّ كلام باديا لم يثبت عليه دليل حسِّي ثابت، بل هي أوهام ما لم يثبت العكس.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٤٦-٧.من جانبه كان باديا "مُحتاطاً دائماً في حَمل ثلاث جرعات من سُلفات الزّنك المقيّئ، وهو ذو مفعول أقوى من الأقراص المقيّئة، ويُعطي مفعوله في الحال، وذلك كي أتناوله منذ اللَّحظة التي أشعر فيها بأيِّ علامة تُوحي بالخيانة" ص١٤٧.

(٣) على النَّقيض من ذلك يُفيد آخرون أنَّ رئيس زمزم هو أحد عُلماء مكَّة الكبار. أنظر: بوركهارت: **رحلات** ص١٣٧.

بأخرى قد يكون السُّم أحدها[1]، إلا أنَّ المبالغة في مثل هذا الموضوع لها ما يبررها عند الرَّحالة الذي تدور حوله علامات الرِّيبة، لكن في جوٍّ مشحون بالمنافسة والدسائس، قد تجد مثل هذه الشَّائعات مرتعاً خصباً أيضاً، والموضوع متروك للباحثين لتقصِّي حقيقة هذا الأمر.

الصفا والمروة:

بعد أن يصفهما يذكر أنَّ الشَّارع الرَّئيس في مكَّة، هو بالتَّحديد الذي يصل الصَّفا بالمروة، وفي الوقت نفسه، هو السُّوق العَام، والنَّاس تَمرُّ فيه بلا توقُّف أو مُراعاة، وهو ما يُزعج الحجَّاج كثيراً في سَعيهم بين التّلتين المقدَّستين، ويقطع عليهم خُشوعهم.

غسْل الكعبة:

اعتبر باديا نفسه محظوظاً حيث شارك في غسل الكعبة، وهنا يمدُّنا بمعلومة تستحق الذِّكر: أنَّه في يوم الخامس عشر من ذي القعدة، يُفتح باب الكعبة "وهي مسألةٌ لا تتكرَّر إلاَّ ثلاث مرَّات، وفي أيَّام مُتفرقة من السَّنة، ففي المرَّة الأولى يستطيع الرِّجال كافّة في مكَّة من الدُّخول والصَّلاة في الدَّاخل، و في اليوم التّالي تُفتح للنِّساء وهذه هي المرَّة الثانية، أمَّا الثَّالثة فتُفتَح بعد خمسة أيَّام، وتُخصَّص لتنظيف وتطهير بيت الله[2]".

---

(١) بوركهارت: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٥٢.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٤٢.يُحدِّد بوركهارت تَواريخ أخرى لفتح باب الكعبة هي: العشرين من رمضان، والخامس عشر من ذي القعدة، والعاشر من محرم، ويتَّفق معه في كونها ثلاث مرَّات في السَّنة. أنظر: **رحلات** ص ١٦٥. بينما يُؤكِّد جوزيف بيتز الذي كان في مكَّة ١٦٨٠م/١٠٩١هـ أنَّها فُتحت في يومين مُتتاليين يوم للرِّجال وآخر للنِّساء. انظر: **رحلة جوزيف بيتز إلى مصر ومكَّة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ القاهرة ١٩٩٥م ص٥٢. وقد فصَّل الحديث مُعززاً بالرِّوايات الدّالة على فضل الصَّلاة داخل الكعبة والآراء الواردة حول ذلك، حسين باسلامة: **تاريخ الكعبة المعظَّمة**، تعليق يوسف الثقفي الرياض ١٤١٩هـ ص ٤١٦-٤٣٣.





يفصِّل الحديث في وقائع هذا التنظيف لبيت الله وكيف شارك فيه، والشَّرف الذي ناله بسبب هذه المشاركة، حيث أسبغ عليه لقب "خادم بيت الله الحرام"، ويذكر كيف يتبرَّك الناس بغسيل الكعبة ويتسابقون عليه(١).

المشاعر المقدَّسة:

يعطينا باديا وصفاً دقيقاً لهذه المشاعر: حالتها، وضعها، مشاعر وسلوك الحجَّاج فيها، حيث كان أحد حجّاج هذه السَّنة الذي صادف يوم الثُّلاثاء للتَّاسع من ذي الحجّة سنة ١٢٢١ هجرية الموافق للسَّابع عشر من شهر فبراير من سنة ١٨٠٧م، فعرفات المكتظة بالناس وصفها بقوله: "إنّه حَشد لا يمكن إحصاؤه من البشر، من جميع الأمم ومن كلِّ الألوان، يَصلون من أقاصي الأرض، مُجتازين أنواع المخاطر والصِّعاب المتعددة، كي يعبدوا مُجتمعين إلهاً واحداً هو إله الفطرة، فسَاكن القُوقاز يَمدُّ يدَ الأُخوّة إلى الإثيوبي أو إلى الأسود الغيني، والهندي والفارسي مُتآخين مع البربري والمغربي، فكلُّ واحدٍ منهم يَنظر إلى الآخر على أنّهم أُخوة، أو أهل بيت واحد مُعتصمين بأواصر الدِّين، يتكلَّمون جُزءاً كبيراً أو على الأقلِّ يفهمون قليلاً أو كثيراً من نفس اللُّغة لغة الجزيرة العربيَّة المقدَّسة; أبداً ليس هناك عبادة تُقدِّم عَرضاً لمفاهيمها أكثر من هذه البساطة واللُّطف والعظمة(٢)". ويدفعه الحماس في هذا الموقف الرُّوحاني المميَّز ليقول: "يَا فَلاسِفة الأرض اسمحوا لعلي باي كي يُدافع عن دينه كما تُدافعون أنتم عن الرُّوحانيَّات أو الماديَّات، الغث منها والسمين، فَرضيَّة الوُجود أو الخلق! هنا ليس هناك وَسيط بين الإنسان وربِّه، فكلُّ البشر مُتساوون أمام الخالق، كلُّهم مُتحابُّون

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٥٠.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٦٤.

مُقتنعون بأنَّ أعمالهم فقط، هي التي تُبعدهم أو تُقرِّبهم إلى الله تعالى، بلا أي يَدٍ أجنبيّة تستطيع أن تُغيّر نظام هذه العدالة البديعة[1]، أيُّ رادع ضدَّ الجريمة وأيُّ تشجيع للفضيلة!![2]"

ثم يصف جبل الرَّحمة وتكوينه الجيولوجي، وارتفاعه وما فيه من منشآت، "وحول جبل عرفات هناك أربعة عشر صهريجاً كبيراً أوقفها السُّلطان سُعُود، وهي تضخّ الماء الجيِّد للشّرب بوفرة، كما يُستفاد منها أيضاً لغسيل الحجّاج في ذلك اليوم فقط[3]".

سَيْر الحجِّ:

يقول في هذا الصَّدد: "يجب التَّنويه بحُسن سَير النّظام، وانسيابه وتكامله، ممَّا سهَّل ضَبط هذه الجموع الغفيرة من البشر، التي تَنتمي إلى أمم مُختلفة، فأكثرُ من ألفَي امرأة اختلطت بهذا الحشد الذي لا حدَّ له، ومع ذلك لم يتسبَّبن في أدنى فوضى; ومع وُجود أربعين أو خمسين ألف بُندقيَّة، إلاَّ أنّه لم يُسمع أكثر من صَوت طلقةٍ واحدةٍ، خَرجت غير بَعيد منيِّ، وفي الحال جاء زَعيم وهَّابي مُوبِّخاً الذي أطلقها قائلاً له بقسوة ممزوجة بالحنان: *لماذا أطلقتُم النَّار؟ هل جئنا إلى هنا للحَرب؟*[4]

---

(١) ما يشير إليه هنا أورده في الجزء الأول المتعلّق برحلته للمغرب ص ٨٦-٨٧: بعد أن لَفت انتباهه عدم وجود قسس ولا رُهبان بين المسلمين، وأنَّ أولئك الذين يَخدمون في المساجد ليس لهم أيَّة امتيازات خاصَّة، مثلما يَحدث لمسئولي الكنائس من أخذ الاعترافات والضَّرائب.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٦٤.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٦٦ .يعكس ذلك مدى اهتمام الدولة السُّعوديَّة الأولى مع أنها ما زالت في بداية تركيز نفوذها في مكَّة المكرَّمة.

(٤) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص١٧٢.

ومع ذلك، فقد تعرضَّت خزانة باديا للسَّطو وسرقت محتوياتها، التي من ضمنها بعض أجهزته الخاصة، إلاَّ أنه اعتبر ذلك حادثاً فرديّاً لا يعتدُّ به.

ويصل إلى وضع **إحصائية لحجاج ذلك العام**: يضمُّ مشهد الحجَّاج على صعيد عرفات حسب رواية باديا: ثمانين ألف رَجل وألفي امرأة وما يناهز الألف من الأطفال، بالإضافة إلى ستِّين أو سبعين ألفاً بين جَمل وحِمار وحِصان، كلُّ هذه الجموع تَتجهَّز للمسير مع حلول الظَّلام(١)، وهذا الرقم لحجَّاج هذه السنَّة يتوافق تماماً مع تلك الإحصائية التي ذكرها يفيمريزفان(٢).

طقوس سادت ثم بادت:

يفيدنا هذا الرَّحالة أن أغلب الحجَّاج، كانوا يتَّجهون لمسجد العمرة(٣) بعد انتهاء مراسم الحجِّ، وبعد الصَّلاة فيه، يضع الحجيج بخُشوع ثلاث حُصيَّات واحدة فوق أخرى، على بُعد مسافةٍ قليلة من المسجد، يذهبون بعدها إلى المكان الذي كان يعيش فيه أبو جهل(٤)، وهناك يشتمونه بحماسٍ عالٍ ويرموه بسَبع حصيات(٥).

---

(١) نفسه، ص١٧٠

(٢) **الحج قبل مئة سنة**: الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م ص ٢٠.

(٣) أشار إليه ابن عبد السَّلام الدّرعي في رحلته، وذكر أنَّ النَّبي ﷺ أحرم منه بعُمرة، ولذا فهو ميقات للعُمرة لمن أرادوا الإتيان بها من مكَّة. **ملخص رحلتي ابن عبد السلام**، ص١٣٩. ويطلق عليها مُسمَّيات أخرى كالتَّنعيم ومسجد عائشة. أنظر: إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/٣٤١-٣٤٤.

(٤) يعتبر أبو جهل من أبرز مُعارضي دعوة النَّبي ﷺ في مكَّة المكرَّمة، عُرف بأساليبه العنيفة ضدَّ الدَّعوة وصاحبها في بداية أمرها، وقُتل في معركة بدر الكبرى، وقد وصفه الرَّسول ﷺ بأنَّه فرعون هذه الأمَّة. وقد حدّد الأزرقي موضع هذه الدّار في كتابه: **أخبار مكَّة**، ٢/٢٤٤، ٢٥٨. ولاشكّ أنّ هذه الإضافات من إحداثات الجهال من الخلف ممّا لم يفعله السَّلف، وهو ما يُعدّ من باب البِدع التي نَهى عنها الإسلام، ولذا فقد ألغاها السُّعُوديون حال دخولهم مكَّة.

(٥) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٧٥.

المذاهب الأربعة في الحرم:

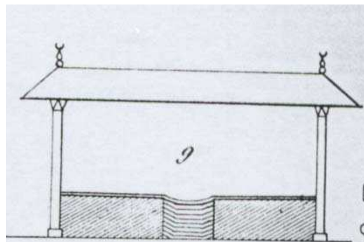
يفيدنا باديا أنَّ المذاهب الأربعة كانت متواجدة بالحرم، فحول البئر بُني مكان صغير **خصَّص لصلاة أتباع المذهب الشَّافعي**، في أعلاه قُبّة أنيقة تتّكئ على ثمانية أعمدة; ويبدأ الميقاتي وهو الشَّخص المسؤول عن تحديد دخول أوقات الصّلوات، بالمنَاداة للصَّلاة من المقام الشَّافعي، وفي الحال يُردِّد سبعة مُؤذِّنين الصِّيغة نفسها، من أعلى المنارات السَّبع[1].

ويذكر أنَّه فيصحن الحرم، تُشاهد أمكنة للصَّلاة حسب المذاهب السُّنيَّة الثّلاثة الأخرى المعروفة: أي المقَام الحنَفي والمقَام المالِكي والمقَام الحنْبَلي[2].

فالمقَام الحنَفي يقع مُقابلاً لحِجْر إسماعيل، ويُقيم فيه الأتراك شَعائرهم، وهو عبارة عن صَالة مَعزولة، تَعتمد على اثنتي عشرة دعامة، وثلاثة أقواس في الواجهة وقوسين في الدَّاخل; والموقع مُتوازي الأضلاع، ضِلعاه الكبيران بطول تسعة وعشرين قدماً وثلاث بوصات، أمَّا الصغيران فبطول خمسة عشر قدماً ونصف، وارتفاع هذه الدعامات أطول بقليل من قَامة الرَّجل الاعتياديَّة. وتُوجد صَالة أخرى أعلى منها، مُساوية لها في المساحة، وللصُّعود إليها هناك دَرج في زاويتها الغربيَّة.

(١) إبرهيم رفعت باشا الذي زار هذا المكان، لكن بعد باديا بحوالي القرن، يُفيد بأنَّ: " شَيخ المؤذِّنين أو الميقاتي يُؤذن على قبَّة زمزم، فيتبعه باقي المؤذنين على المآذن، ومُثبَّت على الحائط الجنوبي لهذه القُبَّة، مِزولة أهداها رجل مَراكشي إلى المسجد، وهي في غاية الضَّبط والإحكام، وعليها ميقاتهم في النَّهار" **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٣٥.

(٢) هذه الأماكن التي أشار إليها خاصَّة بالأئمة الذين يؤمُّون النَّاس بالصَّلاة حسب المذاهب الأربعة المعروفة،وقد بسَط لنا الحديث حولها ابن جبير، وكان أثناء حجِّه سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م هناك مقام للزيديَّة أيضاً، أنظر: **رحلة ابن جبير**، ص ٧٠-٧٢ ; اللواء إبراهيم رفعت باشا في: **مرآة الحرمين**، ١/٢٤٨-٢٥٢.



أَمَّا **المقَام المالِكي** فموجودٌ قُبالة الكعبة في الجانب المواجه للبَاب، في مُربَّع ذو أربع دعامات تسند السَّقف، بمساحة مُربَّعة قدرها أحد عشر قدماً، وارتفاع الدعامات هو نفس ارتفاع المقام الحنفي.

و**المقَام الحنبَلي** مُشابه تماماً للمقام المالكي، وهو مُقابل للحجر الأسود.

ويفيدنا بحصول تغيير في هذه الممارسات بعد وصول السُّعوديِّين إلى مكَّة، لكنه لم يحدِّد لنا ماهيَّته، سوى قوله: "فأئمة الحنَفيَّة والحنْبليَّة يُصلُّون أسفل الكعبة مُقابل الباب، وإمام الشَّافعيَّة يُصلِّي في مَقام إبراهيم، وظَلَّ إمام المالكيَّة وحده هو الذي يُصلِّي في مَكانه، ويَؤمّ الإمام الحنْبلي صَلاة الصُّبح، أمَّا صَلاة الظُّهر والعصر فالإمام الحنَفي، وصَلاة المغرب يَؤمُّها الإمام الشَّافعي، بينما صَلاة العشَاء يُصلِّيها الإمام المالِكي[1]".

في خدمة الحجيج:

يُمكن القَول، بأنَّ نصف سكَّان المدينة تقريباً يُعدُّون من مُوظَّفي أو خدم الحرم، كما هو ظاهر،فشَيْخُ الحرَم وشَيْخ الزَّمازمة لديهم الكثير من العاملين تحت إدارتهم لخدمة الحجيج وصيانة ونظافة الحرم، فهناك أربعون خَصياً من الزُّنوج يقومون بخدمة وحراسة بيت الله، ويميزون أنفسهم بملابس خاصة، مع عمامة

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٠١-٣.كان أئمَّة كلِّ مَذهب يقيمون الصَّلاة لوحدهم قبل هذا التَّنظيم والتَّوحيد الذي أحدثته الدولة السُّعوديَّة الأولى بعد دخولها مكَّة المكرَّمة، فكان أتباع المذهب الشَّافعي يُصلون أوَّلاً، ثم يأتي بعدهم الحنفيَّة فالمالكيَّة ثم الحنابلة، هذا في الصَّلوات الأربع غير المغرب، أمَّا هذه الأخيرة فكان يُصليها الأحناف والشَّافعية في وقت واحد، بينما المالكيَّة والحنابلة يصلُّوها مع غيرهم بلا أئمَّة. إبراهيم باشا: **مرآة الحرمين**،٢٥١/١.

ضخمة بيضاء، ويحملون بأيديهم العصيّ، ويسرد لنا قائمة من هؤلاء العاملين في الحرم على مختلف فئاتهم وتعدد مهامهم، فلبئْرِ زَمزم عمَّال كثيرون وسقاؤون، مُهمَّتهم تنظيم الحصر التي تُمَدُّ كلَّ مساء على أرض سَاحة الحرم وأروقته، كما يتواجد فضلاً عن ذلك، عدد عظيم من الموظَّفين، مثل عمَّال المصَابيح ونحوها، وخدَم مَقام إبراهيم والكعبة، وكلّ مكان من أمكنة الصَّلوات للمذاهب الأربعة، وحرَّاس الأبواب وعمَّال المنارات وخدم الصَّفا والمروة، والذين يعتنون بالأمكنة الخاصَّة، كما أنَّ هناك أيضاً خدم مُهمَّتهم حِراسة أحذية الحجَّاج في كلِّ الأبواب المؤدِّية للحرم، وكذلك المؤذِّنون في المنارات، وأئمَّة ومُؤذِّنو كلّ واحد من المذاهب الأربعة، والقاضي وعُمَّاله، والمرتِّلون، والميقَاتي وهو الذي يُراقب الشَّمس لمعرفة أوقات الصَّلاة، والإداري وعُمَّال كِسوة الكعبة، وخازن مفاتيح الكعبة، والمفتي والمطوِّفون وغيرهم(1).

ويشير في الصَّدد إلى ما يحصل عليه هؤلاء من مكافآت ورواتب، تضاءلت وقت مجيئه، وأنها في معظمها تعتمد على ما يحصلون عليه من صدقات وهبات من الحجَّاج، ولذا "مَا أنْ يصل غَريب حتى يُسارع الجميع للإحاطة به، والكلُّ يحرص ويجتهد في بذل الاحترام والتَّقدير، وتقديم الخدمات له سَواءً رضي أم أبى، والكلُّ يُبدي اهتماماً كبيراً في سبيل صحَّته وسعادته، ويفعل كلّ ما يُمكن لفتح أبواب السَّماء له، من خلال الأدعية وحركات الزُّهد والتَّصوف كل حسب طريقته(2)".

(1) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢١١-٢. أشار إبراهيم رفعت باشا إلى تعدادهم في وقته، وإن كان. فيما يبدو. غير دقيق، فقال: إنَّ عدد "الموظَّفين ما يُقارب السَّبعمئة، منهم ١٠٧ مدرِّس و٧٩ إماماً وخطيباً للحنفيَّة وللشَّافعيِّة ٢٤ إماماً وخطيباً وخطباء المالكية ١٤ أما الحنبلية فخمسة فقط، وهناك ٥٢ خصياً، و٤١ مؤذناً و٨ وقّادين و١٢ فراشاً، و١٠ مراقبين و٢٠ كنّاساً و٣٠ بواباً و١١ سقَّاءاً و١٨١ غسَّالاً لقناديل المسجد و١٨ خادماً عاماً. (**مرآة الحرمين**، ١/ ٢٦٠) لكن يتَّضح في هذه الإحصائيَّة القُصور وعدم الشُّمول لأنَّ هناك آخرين لم يشر إليهم.

(2) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢١٣.





ويذكر أنَّ الوضع الاقتصادي لهؤلاء متردٍ نظراً لانخفاض عدد الحجاج من ناحية، ولأنَّ الغالبيَّة منهم لا تسمح ظروفها ببذل شيء يذكر، كما أنَّ عدَد العاملين في الحرم لا ينخفض، وكل مُوظّفي الحرم يتطلّعون لأن يصبحوا أغنياء، "ومع هذا فكلّ حاجٍّ لن يستطيع أن يتخلَّص من الحرَج، دون أن يترك ما بين ألفٍ وخمسمئة إلى ألفي فرنك، بين صَدقات ومكافآت لأتباع الحرم ومُوظَّفيه[١]" ويشير إلى الفوضى في توزيع هذه الصدقات بين العاملين، باستثناء الأغوات ومُستخدمي زَمزم، الذين شكَّلوا مَجموعتين من نوع الجمعيَّات التَّعاونيّة.

ويشير إلى الأوضاع السياسيَّة السائدة ودورها في هذا التردِّي، فبعد أنكان رئيس الدَّولة يتكفل بمَصروفات عُمَّال ومُوظَّفي الحرم ولو جزئيًّا، نجد"الشَّريف المفتقر اليوم، بسبب ثَورة الوهَّابيِّين، أبعد من أن يَهب شيئاً من ذلك، بل يستولي على كلِّ ما يستطيع أن يصل إليه[٢]".

ويتباكى باديا على حال سكان مكَّة، الذين فقدوا بعض مصادر الدَّخل، نتيجة الإجراءات التي اتَّخذتها الدَّولة السُّعودية، عندما ألغت بعض الطُّقوس المصاحبة للحجِّ، المتمثِّلة في الصلاة بالبيت الذي ولد فيه الرَّسول ﷺ[٣]، وجَبل النُّور وبيت أبي طالب، بالإضافة لأماكن أخرى مُتعدِّدة، تُقام فيها الصَّلاة كجبل أبي قُبيس، ومُصلَّى السيدة فاطمة، ومُصلَّى سيدي محمود وصالحين آخرين[٤].

---

(١) نفسه، ص٢١٣.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢١٤.

(٣) بسط القول فيه إبراهيم رفعت باشا في: **مرآة الحرمين**، ١/١٨٦-١٩٠.

(٤) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢١٤.هذه الأماكن التي أشار إليها باديا لم يثبت عن النَّبي (ص) أنه زارها أو حثَّ على زيارتها، بل هي ممّا ابتدعه المتأخِّرون وليست من شعائر الحجّ المشروعة. ولذا فقد عمد رجال الحركة الإصلاحيَّة على إزالتها أو منع زيارتها، وهو ما حدَّ من أطماع القائمين عليها والمنتفعين من ورائها على حساب أولئك الجهلة والمضلَّلين، ممَّن كانوا يعتقدون بها الضُّرَّ والنَّفع، وطلب كشف الكربة ورفع الغمّة أو الشَّفاعة، والحجُّ عبادة خالصة لله وحده لا شريك له. كما أنَّها أماكن في غالبيتها لم يثبت نسبتها إلى مَن نُسبت إليه.

الأوضاع الاقتصاديَّة:

لقد أولى باديا هذا الجانب اهتماماً خاصاً، تمثَّل في طرقه للعديد من مجالاته التي سنعرض لبعضها، ويصل إلى استنتاجات تصوَّرها وبنى عليها أحكامه، قد نوافقه عليها وقد نخالفه، فمثلاً: يرى أنَّ تديُّن الشُّعوب في كلِّ العُصور هو القاعدة لإعالة المكِّيين، الذين كانوا في فَقرٍ مُدقع قبل مَجيء النَّبيِّ ﷺ، ويشير إلاَّ أنَّها اغتنت بقوَّة السَّلاح بعد ذلك(١)، لكنَّها "عادت مرَّة أُخرى إلى أحضان الفقْر، الذي يبدو وكأنَّه مِيراثها(٢)". ويصل إلى نتيجة مفادها:

"أنَّ **مكَّة** لا تستطيع بحكم موقعها، أن تكون مركزاً تجاريّاً في وسط صحراء قاحلة، كما أنَّ سُكَّانها لا يمكن أن يكونوا فَلاَّحين ولا رُعاة; إذن ما هي الوسائل التي بقيت للمكِّيين من أجل البَقاء؟ قُوَّة السِّلاح لإجبار الشُّعوب الأخرى لمنحها جُزءاً من مَحاصيلها؟ أو الحماس الدِّيني الذي يدفع الأجانب ممَّن يفدون إليها ليتركوا فيها أموالهم؟ في عهد الخلافة كانت هاتين الوسيلتين مُجتمعتين قد جعلت من مكَّة مَدينة ميسورة، لكن قبل وبعد تلك الحقبة المجيدة، لم يبق لإعاشة هذه المدينة سوى الحماس الدِّيني، ومع الأسف فإنَّ هذا بدوره أيضاً بدأ بالفتور يوماً بعد آخر، ممَّا أدَّى إلى حياة مُضنية وغير مُستقرَّة، كما هو الحال الآنوقبل بعثة النَّبي ﷺ(٣)".

---

(١) من الواضح هنا أنَّ المؤلف يقصد الجهاد، وهو بهذا يَسير في ركاب أُطروحات بعض المستشرقين والحاقدين على حركة المدِّ الإسلامي، التي يعزونها إلى القوَّة والإكراه، مع أنَّ الردَّ على هذا التّيار وافتراءاته، قد ورد في القرآن الكريم "لا إكراه في الدِّين" البقرة آية ٢٥٦ ، وأكَّدته مَسيرة انتشار الإسلام في شَتَّى أصقاع الأرض، فقد وصل إلى أفريقية الوسطى والغربيَّة والشَّرقية، وانتشر دون أن تُرفع راية أو يُسلَّ سَيف، وكذا الحال مع شَرق آسية كما في أندونيسيا وماليزيا. وهذا وحده يلقِّم هؤلاء أكبر الأحجار وأقساها.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٣٥.

(٣) نفسه، ص٢٣٤-٥.

ولا شكَّ أنَّ هذه استنتاجات خاطئة، فمكَّة قبل الإسلام كانت مركزاً تجاريّاً مهمّاً،تؤمُّه القوافل صيفاً وشتاءً، والأسواق تقام فيه بمناسبات متعدِّدة خاصة أيَّام الحجّ.

وحكم على أهل مكَّة بأنهم سيبقون دائماً شَعباً بدائياً قابعاً في ظلامٍ دامس، مع تأثير الأجانب، الذين هم من جهة أخرى لن يظلُّوا هناك، أكثر من الوقت اللاَّزم لإكمال مَناسك حجِّهم وإجراء بعض المقايضات التِّجارية، ومن ثَمَّ الرَّحيل إلى بلادهم.

ويشير في موقع آخر: إلى "أنَّ مكَّة فقيرة بطبيعتها، ولو لم يوجد فيها بيت الله الحرام، فإنَّ ضَنك الحاجة، سيجعلها مُقفرة قبل مُضيِّ حَولين، أو على الأقلّ ستتقلَّص إلى مُخيَّم أو قرية، لأنَّ سُكَّانها بصورة عامة، لا يملكون وسيلة أخرى للعيش خِلال العام، سوى ما يستطيعون الحصول عليه أيَّام الحجِّ. ففي هذه الأيّام تُصبح المدينة حيَّة في مَظهرها والتّجارة فيها منتعشة؛ فنصف سُكَّانها يتحوَّلون إلى مُؤجِّرين وتُجَّار وأدلاَّء وخَدم ...إلخ، ويُكرِّس النّصف الآخر جُهودهم بالكامل لخدمة الحرَم، ويعيشون على صَدقات وهدايا الحجَّاج. هذه إذنْ هي وسائل الكِفاح من أجل البقاء لدى المكيِّين، فحالتهم التي يُرثَى لها، تُصوِّرها حالات البُؤس التي تُحيط بهم وتَرتسم على وُجوههم(١)". وهنا نرى أنَّ باديا قد جعل من قضيّة إعالة سُكان مكَّة همّاً حمله، وحاول أن يُشرك القارئ معه فيه، وكأنَّ مكَّة نسيج فريد في مَنظومة من حولها تَنعم بالعيش الرّغيد! ولم يدرك أنَّ شبه جزيرة العرب كاملة، لا تخرج عن هذا التّصنيف وليس لديها أيٌّ من هذه الوسائل المتوفّرة للمكّيين، ومع ذلك فقد قاومت عوادي الزّمن، ومازالت باقية مُزدهرة

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٣٧.




بهمّة أهلها، الذين عَرفوا كيف يكيّفون أنفسهم مع ظروف العيش القاسية، ولو تطلّب ذلك منهم نَحت صخور جبالها ونَبش صحاريها القاحلة، ليستخرجوا منها ما يَسدُّ حاجتهم من مَأكل ومَشرب.

ويفيدنا بأنَّ واردات مكَّة تصلها عن طريق ميناء جدَّة التي تستقبل منتوجات أوروبا والهند، أمَّا قوافل دِمشق والبصرة ومِصر واليمن فتأتي بالباقي، ويقومون بالتَّبادل المشترك.

ويعرِّج على البادية وحالة البؤس التي يعيشونها، ويتساءل: " فأيُّ شيء يمكن أن يُقدِّمه هؤلاء لسُوق التِّجارة سَلباً أو إيجاباً؟[1]" وهو انتقاص لهذه الفئة التي تقوم بواجبها على أكمل وجه، فمنهم يتكون أغلب الجيش المدافع عن البلاد، وعليهم تقوم مهمَّة تربية الماشية، ويشكلون قطاعاً مهمّاً في المجتمع، يسهم في بنائه ويشاركه طموحاته وأحلامه.

ويصوِّر لنا حالة الهزال والضعف الذي يعانيه المكيُّون في هذه المدة، خاصَّة عمَّال ومُستخدمي الحرم، الذين يصفهم بالهَياكل العَظميَّة المتحرِّكة، ممَّا أصابه بحالة من الاندهاش عند وصوله، ويقرِّر أنَّه "من المستحيل على تلك الهياكل العظميَّة، أو يحسن القَول الأشباح، أن تتمكَّن من البقاء لوقتٍ طويل في مثل هذه الوضع، تخيَّل! أيّ واحد منهم، بعُيون واسعة غَائرة وأنفٍ حاد وخدٍّ محفورة حتَّى العظم، وأذرع وأقدام ناشفة تماماً، ومثلها الضُّلوع والأوردة والأعصاب، وفي كلمة واحدة: كلُّ أجزاء الجسم بارزة وشاحبة، ومن الممكن أخذها أمثلة حقيقية لعِلم التَّشريح أو العظام؛ وكم هو مُزعج مُشاهدة هؤلاء التُّعساء، بما يصعب معه على العين، الاعتياد على مثل هذا المنظر الحزين؛ لكن قد تكون تلك الخيرات،

(١) نفسه، ص٢٤٦.

التي تَنتظرهم في الفردوس، أفضل من كلِّ نعيم الدُّنيا، ومع ذلك فهذا الأمل من المستحيل حُضوره في أذهانهم، حتى ولو استغرقنا في الخيال، خاصَّة بين أُناسٍ يلفُّهم الحزن وتَعلوهم الكآبة كأهل مكَّة[١]".

ويصل إلى النَّتيجة الحتميَّة إن استمرت الأوضاع على ما هي عليه:

"من هنا يَسهل الاستدلال، بأنَّ أهلَ مكَّة سيقلُّ عدَدُهم بشكل حادٍّ، فهذه المدينة التي كان تِعداد سُكَّانها أكثر من مِئَة ألف ساكن، لا يصلون اليوم لأكثر من ستَّة عشر إلى ثمانية عشر ألف، وأحياء بكاملها على أطراف المدينة، هي الآن مَهجورة تماماً أو مهدَّمة، وثلثا بيوتها فارغة تقريباً، وأكثر سُكَّانها يتَّجهون إلى الدَّاخل، مع صلاحيَّة مَساكنهم، وواجهات المنازل هي الوحيدة التي ظلَّت في حالة جيِّدة، بدافع جذْب الحجَّاج، ولكنَّ البيوت ستسقط، بسبب قلَّة التَّرميمات الضَّروريَّة لها، وعدم تشييد أخرى جديدة، وفي كلِّ المدينة لم أتذكر أنَّني شاهدتُ بناءً جديداً، ما عَدا واحداً بُنِي آنذاك، وتمَّ ذلك ببطءٍ شديد. وإذا ما استمرت هذه الحالة، فخلال قَرنٍ من الزَّمن، سيقلُّ سُكَّان هذه المدينة إلى العُشر، مُقارنةً بما هي عليه الآن[٢]".

ويعرِّج على **الضَّرائب المفرُوضة** على التِّجارة والنَّاس فيرى أنها متعسّفة للغاية، ويقول: إنَّها "تتصاعد يوميّاً، والسُّلطان يخترع طُرقاً جديدةً لرفعها، وبكلمةٍ واحدةٍ: فإنَّ الشَّعب مَخنوق تماماً، ففي كلِّ الديِّار المقدَّسة لم أجد من يتكلَّم عنه بكلمة حسنة[٣]".

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٣٨ . وقد سقطت بعض العبارات من هذه الطبعة.

(٢) نفسه، ص٢٣٨.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٦٨.

ومع أنَّ مسألة الضَّرائب قد يكون لها ما يسوغها في هذه المدة العصيبة من تاريخ مكَّة، التي يسودها عدم الاستقرار والصِّراع بين السُّلطة المحليَّة الممثلة بغالب وبين الدَّولة السُّعودية، وهذا بلا شكّ يحتاج لوقود تمثِّله الضَّرائب وضحاياه هم النَّاس، إلاَّ أنَّ هذا الهجوم على الشَّريف غالب، تتَّضح خيوطه عندما يصرِّح بعلاقته الأكيدة مع الإنجليز وتعاونه معهم[1]، مما يُدخله ضمناً طرفاً في الصّراع والتَّنافس الفرنسي الإنجليزي على المنطقة، وهو ما أوضحناه بمقدمة هذه الدِّراسة. لكن في المقابل نجد آخرين أكّدوا ما سجّله باديا هنا، فهذا الجبرتي يؤكد ما ذكره بل أشنع منه، فبعد أن ذكر بعض الأشياء التي عدَّها عليه، قال: " *وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوها على المبيعات والمشتروات... ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم، فيكون الشّخص من سائر النّاس جالساً بداره فلم يشعر على حين غفلة منه إلاّ والأعوان يأمرونه بإخلاء الدّار وخروجه منها، ويقولون إنّ سّيد الجميع محتاج إليها، فإمّا أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشَّريف، وإمّا أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقلّ أو أكثر*[2]"، وفي المقابل نجد بوركهارت بعد أن عرَّض به باضطهاده لتجّار جدَّة وفرض الضّرائب على بضائعهم ومنافسته القويّة لهم، قال: "*لكن لم يُعرف أبداً أنه ابتزّ أموالهم، فإذا اقترض مالاً أعاده في وقته المحدد*" ثمّ يقول: " *ويجب ألاّ يُفهم سلوكه هذا على أنه نابع من حبّه للعدل فقد كان حكمه يتّصف بأسوأ أنواع الاستبداد، لكنّه كان يعلم جيّداً أنّ التّجار إذا شعروا بعدم الاطمئنان في جدَّة فلن يأتوا إليها، ومن ثمّ تتحول جدَّة إلى مدينة تافهة*[3]".

(١) تمثل ذلك في قوله: "يُنظر للإنكليز باعتبارهم أصدقاء مُخلصين للشَّريف، بسبب الدَّعم المباشر الذي يحصل عليه من خلال التِّجارة مع الهند". السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٩.

(٢) **تاريخ عجائب الآثار**، ١/١١٦.

(٣) **رحلات**، ص ٣١.

الأسواق المواد الغذائيَّة:

مع عشوائية الأسواق وعدم انتظامها التي صوَّرها لنا الرَّحالة، إلاَّ أنَّها غنيَّة بمحتوياتها عند استعراضه لها; فالموادُ الغذائيَّة متوفرة وإن كانت غالية، أمَّا اللَّحم فمتيسِّر وهو الأساس، والسَّمك مجهول تقريباً، مع أنَّ البحر لا يَبعد سوى اثني عشر فرسخاً[١]، ويذكر أنَّ تكلفة كبشٌ كبير يكلِّف سَبع فرنكات، أمَّا الطُّيور فنادرة وبدرجة تالية يأتي البيض، ويأتي القَمح من أعالي مِصر، والبقول والرُّز تصل من الهند، والخضروات ترد من الطَّائف ومن وادي فاطمة[٢]، وتشمل: الفجل واللّفت والقثّاء والرّجلة والكرنب والكُرَّاث[٣].

ويضع لنا باديا قائمة بأسعار المواد في أسواق مكَّة أثناء تواجده، وإن كانت متذبذبة بسبب تردي الأمن في هذه المدة[٤] :

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٦. وهذه الملحوظة أكّدتها قائمة بوركهارت الوافية بكلّ البقُوليّات البقُوليّات والخضار واللحوم وحتى الجَراد المجفّف، ما عدا الأسماك التي لم يرد لها ذكر فيها، ممّا يعني ندرتها أو انعدامها. راجع: **رحلات** ص ٢٢٢-٣.

(٢) بوركهارت أكّد على أنَّ الخضار تصل مكَّة وجدَّة من هذا الوادي. أنظر: **رحلات** ص ٣٨. ويَبعد وادي وادي فاطمة عن مكَّة حوالي ٢٥ كيلو متراً إلى الشَّمال الشَّرقي، يذكر بوركهارت أثناء مروره به أنه كان مليئاً بالينابيع والعيون، انظر: **رحلات** ص ٢٦٩-٢٧٠ .

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٦-٧.

(٤) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٣-٤ .وقد أشَار الجبرتي إلى ارتفاع الأسعار في هذه الفترة وعَزاها إلى إلى عدم الاستقرار. انظر: **عجائب الآثار**، ١١٦/٣ .

أوقيَّة[1] السَّمن	٥ قُروش تُركيَّة
الدَّجاجة الواحدة	٤ قُروش تُركيَّة
ست بيضات	١ قِرش تُركي
حِمل بعير من الماء العَذْب	قِرشان تُركيان
أوقيَّة الزَّيت[2]	٤ قُروش تُركيَّة
أوقيَّة الخبْز	١٢ بَارة
قِربة من ماء البئْر	١٢ بَارة
أوقيَّة الحطَب	٣ بَارة
أوقيَّة الفحْم	٢٠ بَارة

(١) كتبها باديا بالشَّكل التَّالي : Oka.وقد تصرَّفنا بالترجمة هنا خاصة وأنه كرَّر هذه الكلمة مع مواد أخرى مثل الفحم والخبز، مما يدلّ على أنّه قصد بها شيئاً آخر كأوقيّة مثلاً، وهو ما نستشفّه من الفصل الذي خصّصه أ. ج. سوانسن كوبر عن الأوزان والمقاييس في البلاد الخاضعة لنفوذ الأتراك، حيث أكَّد أن الأوقية هي السائدة في الأوزان. أنظر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ترجمة صادق عبد الركابي، الأردن، عمان ٢٠٠٤م ص٣٤٩-٣٥٠. بينما نجد بوركهارت استخدم الرّطل في قائمته بدلاً من الأوقيّة، (**رحلات**. ص ٢٢٢-٢٢٣). ويلاحظ على قائمة بوركهارت غِناها وتوفّر موادّ لم تكن موجودة على عهد باديا كالطّيور مثلاً، كما أنّها كانت أشمل وأدقّ، فبالإضافة إلى أسعار الموادّ، فقد شملت أسعار الخدمات وأجور العمّال، ولعلّ لفترة الهدوء التي جاءت خلالها رحلة بوركهارت أثر في توفُّر المواد واستقرار أسعارها.

(٢) لقد زادنا بوركهارت توضيحاً بهذا الزّيت، فقال: إنه " الزّيت الذي يُستخدم لإضاءة المصابيح، فهو زيت السّمسم ويُستورد من مصر. أنظر: **رحلات**. ص٣٧.




الأوزان والمقاييس والنُّقود:

يشير باديا أنَّها هي نفسها المستعملة في مِصر، وإن كانت أقلَّ دقَّة[١].

أمَّا النُّقودُ المستعمَلة فمع أنه يشير إلى أنَّها لا تختلف عمَّا في مِصر، لكن عند استعراضها نجد بعض الاختلاف كما سنرى، يقول: "وفي مكَّة تُتداول نُقود من كلِّ الدُّول، ويُشاهد الصَّرافون يوميّاً، مُتربِّعين أمام طاولاتهم في الأسواق العامَّة، مع مِيزان صغير وهم مَشغولون في التَّصريف، وتتمُّ عمليَّاتهم في حقيقة الأمر بأسلوب فظٍّ، لكن في كلِّ الأحوال، يَستحيل التَّصور بأنَّ هؤلاء سيَصبحون ضَحيَّة لأيَّة أخطاء قد تَقع[٢]".

ويلاحظ أنَّ باديا لم يوضح لنا أنواع **العُمْلة المتداولة** في مكَّة بما فيه الكفاية، فما ذكره لا يتعدَّى العُمْلة الإسبانيَّة الوحيدة المتداولة وهي الدُّورو[٣]، والأسكودو الذي ذكر أنه ألماني،ولم أجد ذكراً لهذه العملة في مصادر هذه المدة التي درست الحجاز، والإشارة إلى ألمانيا هنا أيضاً في منتهى الغرابة، لأنّ الأسكودو كان عمْلة ذات أصل فرنسي سُكّت في عهد لويس التاسع عملة ذهبيَّة، وظلّت سائدة حتى نهاية القرن الخامس عشر، فأُدخلت إلى إسبانيا في القرن الذي

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٤. ويؤكِّد هذا الحكم أيضاً أ. ج. سوانس كوبر، ويذكر أنَّ مرد ذلك إلى عدم معرفة الأجنبي القادم لهذه الديار حديثاً بمصطلحات الأوزان والمقاييس، لأنها تتفاوت من بضاعة لأخرى، فمثلاً حينما يتحدثون هنا عن أوقية اللحم أو الخبز ونحوها فالمقصود بها الأوقيَّة الكبيرة التي تساوي حوالي أوقيتان ونصف من أوقيات اسطنبول، فربما خدعوه وباعوه بأوقية اسطنبول وبنفس الثمن. انظر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ص٣٤٩.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٤.

(٣) الدورو: عملة معدنية إسبانية تساوي خمس بيزتات، يطلق عليها هذا المسمَّى، كانت متداولة قبل انضمام إسبانيا لمنظومة اليورو. ويقول باديا إنه يُساوي في السُّوق خمسة قُروش تُركيَّة، وكلُّ قِرشٍ واحد منها يُساوي أربعين بَارة، وفي عمليّة الصَّرف يُساوي أربعة ونصف فقط.

يليه حتى عام ١٨٤٨م[١]. ولعلّ المقصود هنا، هو الدُّولار الذي تردّد ذكره في مذكِّرات بوركهارتوهو ما يُعرف شعبيّاً بالرّيال الفرنسي، كان يُستخدم في الحجاز والجزيرة العربيَّة إلى وقت قريب، هذه العمْلة - مجال الحديث - ضُربت في النّمسا سنة ١٧٨٠م/١١٩٥هـ[٢]; لكن بوركهارت الذي جاء بعده بثمان سنوات كان أكرم منه، حيث وافانا بأنواع العملات المستعملة آنذاك في الحجاز، فذكر من بين العملات المعدنيَّة المتداولة: السُّكونيّات البندقيّة والمجريّة والدُّولارات الإسبانيّة، والعملة المعدنيَّة التي سُكّت في إسطنبول، لكن العملة المصريّة كانت مُستبعدة من التَّداول في الحجاز حتى مَجيء محمَّد علي في حملته المشهورة حسب إفادته[٣]. لكن تَستوقفنا كثيراً الدُّولارات الإسبانية هنا، فباديا أشار إلى هذا النّوع من العملة، لكنه أطلق عليه مسمَّى "الدُّورو" وليس الدولار، وهو عُملة معدنيَّة كانت مُتداولة في إسبانيا حتى وقت قريب، وقد سبق التّعريف بها، لكن لم نجد ذكراً لدولار إسباني. من جانب آخر وكما يفيد جون بوركهارت، كان الدُّولار هو السّائد في تعاملات الدَّولة السُّعوديَّة الأولى، بالإضافة إلى بعض العُمُلات الأوروبيَّة الأخرى وبعض قِطع العُملة اليمنيَّة، قبل أن يُصبح لها عمْلة خاصة بها، لاسيَّما وقد رفضوا التَّعامل بالنّقود العثمانيَّة[٤]. لكن يبدو الأمر واضحاً، حينما يزيد بوركهارت نفسه الموضوع تجليةً في موضع آخر من كتابه، بأنَّه "دولار ماريّا تريسا" وهو ما يُعرف لدى العامّة بالرّيال الفرانسي كما ذكرنا[٥].

---

(١) انظر: LAROUSSE،Diccionarioenciclopedico،t.6 p.859.

(٢) انظر عنها: الشَّريف مسُعُود محمد آل زيد: **تاريخ مكَّة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد**. القاهرة٢٠٠٥م، ص١٧٧.

(٣) انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص ٤٩.

(٤) انظر: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين**، ص ٥٤-٥٥.

(٥) انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٢٣. ولمزيد من التّوسع في هذا الشّأن، يمكن مراجعة الفصل الذي خصّصه الباحث مسعود آل زيد في: **تاريخ مكَّة المكرّمة**، ص ص ١٧٣-١٧٨.

الحرف والصناعات:

ينتقد باديا المكيين بأنَّهم اتكاليُّون في هذا الجانب، ويعتمدون على الاستيراد، ويتوقَّف بالوصف عند بعض الصِّناعات البسيطة التي يتعاطاها الحرفيُّون المكيُّون وكيف تتمّ صناعتها وأماكن تواجدها، ممَّا يفيد الباحث في هذا المجال للمقارنة والاستفادة.ولعلَّ مجيئه كان في وقت انشغل فيه الجميع بالحجّ والحجَّاج، فتعطلت بعض أسواق الحرف اليدويَّة، وهو ما يبدو ممّا كتبه بوركهارت من بعده، الذي أكَّد على وجود سُوق للحدّادين ومحلاّت لصَانعي الأقفال(١).

ويذكر أنَّ منع استعمال **السبحة** بعد دخول السعوديِّين، باعتبارها جُزء من البدع الباطلة، حيث كانت تجارة مربحة لأهل مكَّة، إلاَّ أنَّهم استمرُّوا في صُنعها سِرّاً للحجَّاج، من عدِّة أنواع من خشب الهند واليمن، ومن خشب الصَّندل المعطَّر جيّداً(٢).

الثَّروة الحيوانيَّة:

يتحدث في هذا المجال عمَّا شاهده ورآه في هذه المدينة من حيوانات أليفة وداجنة، **فالخيول** لا يوجد منها سوى مئة عند حَرس السُّلطان الشَّريف، ثم حوالي الستَّة على الأكثر عند الخاصَّة، وهي نادرة بين البدُو، ومع أنها قبيحة **إلا** "أنَّها قويَّة للغاية وتَجري بسرعة كبيرة، وتَتحمَّل الجُوع والعطَش، وهذه هي مَحاسن الخيول العربيَّة، أمَّا لونها فهو بصورة عامة أشهب، ورأسها جميل جدّاً، والجزء السُّفلي من السَّاق قليل الخشونة، والذَّيل نحيل والعين تَلمع والأذن رقيقة(٣)".

---

(١) **رحلات**، ص١١٩.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٤.

(٣) نفسه، ص٢٦٠

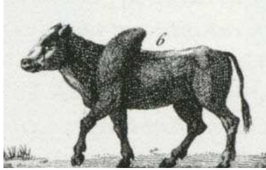




ويتحدث عن معاملة الفرسان القاسية لها؛ويرجع السَّبب في نُدرة الخيول بهذه البلاد، إلى حرارة وجفاف الأرض الصَّحراويَّة، وهو تعليل لا يتماشى مع الواقع، فقد أنجبت الجزيرة أنبل الخيول العربية الأصيلة التي أشاد بها البعيد قبل القريب[١].

أمَّا **الجَمل** فهو "هِبَة العناية الإلهيَّة لقاطنيها، الذين يتنقَّلون في أرجائها القاحلة، فكيف ستكون الجزيرة العربيَّة دون جِمال؟ وأيُّ قوَّة إنسانيَّة كافية، لجمع اثنين وثمانين أو أربعة وثمانين ألفَ شخص عند جبل عَرفات في يوم الحجِّ، دون طلب النَّجدة من هذه الحيوانات النَّفيسة؟"، ومع اهتمام أصحابها بها إلاَّ أنها "مُلزمة بالخدمة حتى النَّفس الأخير، وتَنفق وهي تحت وَطأة العمل، وعِظامها تَملأ الطُّرقات[٢]".

وتتوفَّر **الحمير** التي تتردَّد بين مكَّة وجدَّة باستمرار، ويستخدمها الأهالي في المدينة.



ويُوجد في مكَّة نوع من **البَقر** جميل بلا قُرون، مع سَنام في الظَّهر،

وتفيد في الرُّكوب والتَّحميل، وتُسافر بخفَّة كبيرة، وتُدِرُّ الكثير من الحليب[٣].

(١) فعلى سبيل المثال، كان لدى الإمام سُعُود بن عبد العزيز خِيرة الخيول العربيَّة الأصيلة، إذ كان يحتفظ في الدِّرعية وحدها بأكثر من ثلاثمئة أو أربعمئة منها، غير ما هو موجود في مناطق أخرى كالأحساء وحائل وغيرها. (ج. ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص٣٦).

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٠-١.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦١.





ويستعرض أنواع الماشية الموجودة ومواصفاتها من ضأن وماعز، ثم ينتقل للحديث عن الكلاب والقطط والحمام، وحتى الحشرات والقوارض التي لم يسلم هو نفسه من عضّاتها.

الغطاء النَّباتي:

يبدو أن زيارة باديا لمكَّة كانت في سنة مجدبة، ولذا نجده يرسم صورة جرداء مقفرة للمدينة وفضائها المحيط، فالخضرة نادرة والنَّبات شبه معدوم، "ومن الممكن أنَّ فُصول السَّنة الباقية، قد تتوافر على أنواع أخرى، لكن لا أحد يأمُلُ بوجود شيءٍ يُشبه المرج، أو على الأقلّ من ذلك، حديقة في مكَّة، بل كلُّ ما هنالك رِمال وصُخور[١]"، وقد أحصى لنا عدد الأشجار بالمدينة، وحصر أماكن تواجدها، وهي من النَّوع الشَّوكي المعروف بالنبق، والمزرعة الوحيدة التي شاهدها، كانت بجانب قصر الشَّريف خارج المدينة، وقد زُرِعت فيها النَّخيل[٢].

ويلفت نظره ندرة الزُّهور في هذه المدينة، وكانت الزَّهرة الوحيدة التي رآها عندما كان في طريقه لعرفات، "فأمرتُ واحداً من خاصَّتي كي يَقطع النَّبتة ويأتي بها إليّ، لكن لحظه بعض الحجَّاج، الَّذين أبعدوه في الحال عنها فزجروه، وقالوا له بأنّه من الخطأ اقتلاع أو قصّ نبتةٍ خلال مدة الحجّ إلى عَرفات[٣]".

(١) نفسه، ص٢٥٠.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٥١.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٢٧.المنع ينسحب على كامل منطقة الحجّ ما دام الإنسان في وضع الإحرام.

الحركة الثَّقافيَّة:

يرسم لنا لوحةً كالحةً عن الحالة العلميَّة في هذه المدة، حتى أنَّها بدت له مهجورة، فما عدا قراءة القرآن وتدريس أمور الصَّلاة والحجّ لا يوجد ما يخدم هذا المجال، فلا مدارس نظاميَّة، وإنّما حلقات في أروقة الحرم لتعليم القراءة والكتابة وأمور الدِّين(١)، لكنَّه يُأخذ عليها عدم انتظامها وقلَّة مرتاديها؛ويبالغ في ذلك لدرجة القول: "أنَّ المكِّيِّين هم أقلُّ النّاس علماً(٢)"، ويتساءل بحرقة: "كيف إذَنْ تَنهض الفنون والعلوم وتَزدهر؟ خَاصَّة وأنَّ مَوقعها الجغرافي، أبعدها عن خُطوط الاتّصالات التِّجاريَّة، وجعلها في جَهل مُطبق ومنأى تام عن كلِّ الأخبار والاكتشافات والثَّورات والنَّشاطات الإنسانيَّة الأخرى(٣)".

وهذا حكمٌ جائرٌ بلا شكّ، صحيح أنَّ لظروف هذه المدة أثراً واضحاً على مكَّة في كلّ النّواحي، لكن أن نصل إلى هذا التّعميم وهذا الحكم، فهو ما لا نتَّفق فيه مع المؤلِّف، لأنّ حلقات العلم التي لم ترق لرحَّالتنا، هي محطّ أنظار طُلاب العلم في كلِّ أنحاء العالم الإسلامي، وبوقفة مع تلك المؤلَّفات التي تناولت مكَّة بالبحث والدِّراسة، نجد أنَّها تشيد بهذا الجانب الذي جعل منها مركزاً علميّاً يؤمُّه الكثيرون لينهلوا من معينه(٤). ومع أنّ بوركهارت قد وافق باديا في أغلب هذه

(١) يشير إلى أن الأطفال "يتعلَّمون الصَّلوات ومَناسك الحجّ، للحصول على الكسب السَّريع بخدمة الحجَّاج مُطوِّفين لهم، ولهذا فستجدُ أطفالاً في الخامسة أو السَّادسة من أعمارهم، يقومون بهذه المهمّات، مَحمولين على أكتاف أو أذرع الحجَّاج، يكرِّر هؤلاء الأدعية، التي يتلوها الأطفال كَلمة فكَلمة بصوتٍ عالٍ، وفي نفس الوقت يوجِّهون مَسيرة الحجيج لأداء مَناسك الحجِّ في مُختلف مَحطَّاته".

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٣١.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٣٥.

(٤) أنظر على سبيل المثال: الفاسي: **شفاء الغرام**، ٥٢٣/١-٥٣٨ ; آل زيد: **تاريخ مكَّة**، ص ٢١٣-٢٦٥ ; عبد العزيز راشد السنيدي: **الحياة العلمية في مكَّة المكرمة**، الرياض ٢٠٠٣م معظم صفحات الكتاب خاصة الفصل الخاص بالصِّلات العلميَّة بين مكَّة وبقية أقطار العالم الإسلامي ص ٣١١-٣٨٠.

الأحكام، إلاَّ أنّه كان أكثر تحفّظاً في الحكم بهذا التّعميم على المكيّين، إذ قال: *"وأظنّ أن لديّ من الأسباب ما يجعلني أؤكد أنّ مكَّة في الوقت الحاضر، أقلّ درجة بكثير حتى في التّعليم الدّيني من أيّة مدينة أخرى مناظرة لها في عدد السُّكان، سواءً في سوريا أم في مصر"* وبعد أن ذكر انشغال الناس بلُقمة العيش وتحوّل كثير من المدارس وأماكن العلم إلى سكَن للحجّاج; يذكر أنّه لا توجد مدرسة حُكوميَّة واحدة، والمسجد الحرام هو المكان الوحيد للتّعليم وإلقاء الدُّروس. ويفيد بأنّ أهل مكَّة أنفسهم، ممّن يريدون التزوّد بالعلم، يتّخذون طريقهم إلى دمشق أو إلى القاهرة(١).

ويبدو أنَّ **المكتبات** أيضًا قد تأثَّرت بالوضع، يبدو ذلك من قوله: "وقد أردتُ اقتناءَ قرآنٍ مَكتوب في مكَّة، لكن كان الحصول عليه من الصُّعوبة بمكان(٢)"، ومن باب أولى تواجد المطبوعات الأخرى، ويعزو بوركهارت السَّبب في عدم توفُّر مثل هذا النَّوع من الكُتب إلى إقبال الحجَّاج عليها باستمرار، بالإضافة إلى عدم وجود نُسّاخ في مكَّة ينسخون نسخاً إضافيَّة، ويذكر أنَّه يوجد في مكَّة رجل هندي من لاهور، يكتب العربيَّة بخطٍّ جميل جدّاً، كان يجلس في دكَّان بالقرب من باب السَّلام، وينسخ للحجَّاج الدَّعوات التي يتعيَّن عليهم ترديدها في الحجِّ(٣).

وعن واقع **العربيَّة**،يفيدنا عن تردِّي مستواها، "حقيقةً أنَّ مكَّة والمدينة هما مَهْد العَربيَّة، لكن نتيجة للجهل السَّائد فإنَّ هذه اللُّغة تَتَدهور وتَتَغيَّر حتى في

---

(١) **رحلات**، ص ١٩٤-٥

(٢) السنيدي: **رحّالة إسباني** ...، ص٢٣٠.

(٣) انظر: **رحلات**، ص١٩٦.

النُّطق"، ويعزو ذلك لعدم توفُّر نِظام وطني لضَبطها، ووسائل لحفظ وإدامة الموروث الأصلي. كما أنَّ دُخول التَّعابير المتعدِّدة، والاتِّجار مع الأجانب أدى إلى هذا التَّردي(١).

الطِّبُّ والصَّيدلة:

يندبُ حال الطِّب والدَّواء في هذه البلاد، فلا وجود لأطبَّاء حقيقيِّين، وإنَّما "متَطبِّبون يُوظِّفون باستمرار، الأدعية والممارسات الخرافيّة في علاج مَرضاهم، ونتيجةً لذلك، لا يمكن أن يُؤمَّل بوجود صَيدليَّات، أو بائعي أدوية وعقاقير؛ وعندما يقع أحد السُّكان طَريح الفراش، يقوم حَلَّاقه بعمل مَشروب فَواكه له، ويُعطوه كميَّات من محلول الزَّنجبيل، ويُسقى كذلك من ماء زمزم ويغتسل منه، كما يُناولوه الكثير من القِرفة والقرنفل وغيرها من الأفاويه، والمريض يُشفى أو يموت حسب إرادة الله(٢)".

ويشيد بما أسماه **بَلسَم مكَّة**، وصفاته العلاجيَّة، ويُستخرج بصورة رئيسيَّة من مَنطقة المدينة المنوَّرة من شجرة تسمى البلسان(٣).

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٧.تبدو نظرة زميله بوركهارت أكثر تفاؤلاً بشأن هذا الموضوع، فاللّغة العربيَّة.بنظره.ما تزال في مكَّة أكثر نقاءً وأناقة في التَّعبير والنُّطق من أيِّ بلد آخر يتحدّث العربيَّة. أنظر: **رحلات**، ص١٩٧.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٥٤.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٥٤.ورد ذكره لدى النَّباتيّين وأطبّاء الأعشاب، وإن أطلقوا عليه مُسمَّى "بَلسَان" حسب مُحقّق **كتاب القُولنج** لأبي بكر الرَّازي، تحقيق وترجمة: صبحي حمامي، ط. جامعة حلب ١٩٨٣م ص ٢٠٩. أنظر للمزيد، مثلاً: داود بن عمر الأنطاكي: **تذكرة أولي الألباب** والجامع للعجب العجاب، بيروت؟ ٨٢/١ ; وتحدَّث عنه بوركهارت، وذكر أنَّ البلسم المكّي يُستخلص من بذُور الشَّجر، وأنه شائع الاستخدام للإجهاض أيضاً. أنظر: **رحلات**، ص١٧٤. أما المحدّثون ممن اهتمّ بهذا النّوع من النّبات، فقد ذكروا أنّه: شَجر له زَهر أبيض صغير كهيئة العناقيد، وأنّه يُفيد لعلاج الصّداع وعدّة أمراض أخرى. أنظر: **التّداوي بالأعشاب والنباتات قديماً وحديثاً**، جمع مواده ونسقها وقدم له: أحمد شمس الدين، بيروت ١٩٩١م ص ٩١-٢.

الحياة الاجتماعيَّة:

أثرى هذه الناحية حينما وصف الناس في أشكالهم وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليب عيشهم، لكنَّنا لن نسرد كلَّ ذلك فهو متيسِّر وموجود في الكتاب المنشور،وسنتوقَّف عند بعض القضايا التي لها طابع الغرابة أو تحتاج إلى إيضاح وتعليق.

المرأة المكيَّة:

حديثه عن المرأة يتصف بالتَّناقض إن لم نقل بالتَّجنِّي، فهنَّ: "بشكلٍ عام غير جميلات، وألوانهنَّ صَفراء تميل إلى الخضرة كالرِّجال[١]"،بينما يناقض نفسه ويعود ليقول: "كُلُّ مَن رأيتهنَّ ظريفات جدّاً، وفوق ذلك عُيونهن الجميلة"، على أنَّه يأخذ عليهنَّ تشويه أنفسهنَّ: "وعادةَ الوشْم باللَّون الأصفر المائل إلى الاخضرار، هو ما يُعطي لملامحهنَّ مظهراً غير جميل، فكأنَّهنَّ مُصابات باليَرقان أو بالاستسقاء[٢]".

أمَّا الحريَّة التي تتمتَّع بها المرأة المكيَّة، فهي أكبر مساحةً من تلك التي تتمتَّع بها نظيرتها في مدنٍ إسلاميَّة أخرى، لدرجة تصل للابتذال أحياناً، "كنتُ أرى النِّساء اللَّواتي يَسكنَّ بجواري باستمرار، مُطِلَّات من النَّوافذ، وكثير منهن مُتبرِّجات تَماماً، إحداهنَّ كانت تَقطن في الطَّابق العُلوي الذي يعلو بيتي، وكنتُ كلَّما صعدتُ إلى السَّطح لرصْد النُّجوم، تُظهر رقَّة ومُجاملة وبوجهٍ مكشوف[٣]"؛

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٣.

(٢) نفسه، ص٢٤٤.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٤.تظل المرأة دائماً مثار اهتمام الرجل، وتبقى محط أنظار الغرباء منهم والرحالة والمستكشفين بالذات، لذا لا نستغرب ما يسوقه الرحالة هنا أو في مواقع أخرى عن المرأة من أحاديث وقصص تظل محلَّ شكّ، وتدخل في سياق التشويق والإثارة.

ويعزو ذلك إلى الحالة الاقتصاديَّة السَّيئة، التي تضطرّ المرأة إلى دخول سوق العمل لمساعدة زوجها على أعباء الحياة الصعبة، وكذلك توافد الأجانب على مكَّة من أقطار متفرِّقة وثقافات متعدِّدة، ويصل إلى نتيجةٍ مُؤدَّاها: "أنَّ الغِنى والفَقر هما على السَّواء طرفا نقيضٍ فيما يتعلَّق بالمحافظة على العَادات والتَّقاليد[1]".

أمَّا الحجاب وغطاء الوجه، فكما هو في مصر: تغطية الوجه بقماش فيه فتحتان للعين، تتَّسع هاتان الفتحتان لكشف نصف الوجه، لكن هناك قسم آخر مكشوف الوجه تماماً[2].

ويبدو أنَّ رحَّالتنا يخلط كثيراً بين المرأة المكيَّة والوافدة، فمثلاً عندما يتحدث عن الملابس، فمن الواضح أنَّها تلك التي ترتديها المرأة الأفريقيَّة، "فهي نوعٌ من الأردية الضَّافية المخطَّطة بالأزرق والأبيض على طوله وعرضه، .. وأياديهنَّ ووجوههنَّ بالكامل تحمل خِضاباً بالسَّواد، أو باللَّون الأزرق والأصفر، ممَّا يُبرز صُورة مُفزعة جعلتها العادة جميلة، وقد رأيتُ بعضهن، يضعن حلقة في غُضروف الأنف متدلية فوق الشَّفة العليا ... ويَشِمنَ الجلد برُسومٍ لا تُمحى،.. ويَصبغْنَ الأسنان بالأصفر[3]"; وهي صفات ما زالت تحتفظ بها بعض النساء الإفريقيات بمكَّة المكرَّمة.

أمَّا الملابس النِّسائيَّة:

فقد أعطى تفاصيل مفيدة، تتعلق بطريقة اللبس ونوعه، وملابس كلّ فئة سواء كانت غنيَّة أو فقيرة، ساكنات المدينة أو البادية، لكن من الواضح أنَّه يخلط بين الوافدات وبين نساء المدينة، فهنَّ يرتدين: " قُماشاً مربَّعاً بستَّة أقدام عرضاً،

---

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٣.

(٢) نفسه، ص٢٤٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٤-٥.

وأكثر من خمسة أقدام طولاً، وكلّ ذلك لا يعدو أن يكون نصف قَميص، ثم نفس المربَّع بالنِّسبة للنِّصف الثَّاني، وتجتمع القطعتان في الجزء الأعلى، مع تَرك فتحة في الوسط لإدخال الرَّأس[١]"، ومن الواضح أنَّ ذلك ينطبق على لباس المرأة الأفريقيَّة،بينما ترتدي من يسميهنَّ "البدويَّات قاطنات المدينة:"ثوباً من القُماش الأزرق، وشالٍ أحمر حول الوَجه، وعَباءة سَوداء من الصُّوف، وخَواتم وأسَاور[٢]"، وهو ما ينطبق على لباس المرأة المكيَّة الأصليَّة، وهو ما يعدُّه باديا اللِّباس الأكثر تحضراً.

هذا الخلط، نراه في حديثه عن**ملابس الرِّجال** أيضاً، "أمَّا سُكَّان المدينة فيضعون على رُؤوسهم نَوعاً من القلنسوة أو الطَّربوش ذات اللَّون الأحمر مع العمامة، والبدو لا يستعملونها عادة، فهم يُغطُّون رؤوسهم بمحرَمة أو شَال أصفر مُخطَّط بالأحمر والأسود، مَطويٌّ بشكل مُنحرف آخذ شكل مُثلَّث، وموضوع على الرَّأس بحيث أنَّ طرفي الزَّاويتين الحادَّتين يتدلَّيان أمام الكتف، والباقي على الرَّقبة والظَّهر[٣]، والبدُو المتمكِّنون يضعون فوق ذلك الشَّال قطعة من النَّسيج الموصلي المدوَّرة على شكل عمامة[٤]"، وهذا يحتاج إلى تحقيق ودراسة من المهتمين بهذا الجانب من تاريخ مكَّة.

ويقع في خطأ آخر، عندما يصنِّف أولئك المعتمرين الذين تكتظ بهم مكَّة بملابس الإحرام بأنهم "الفُقراء الذين يُشكِّلون الأغلبيَّة ويمشُون شُبه عُراة[٥]".

---

(١) نفسه، ص٢٤٥.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٦.

(٣) من الواضح أنه يقصد الشّماغ أو الغترة في عُرفنا الحالي.

(٤) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٤٨. ويبدو أنه يُشير إلى العِقال هنا.

(٥) نفسه، ص٢٤٨.

عادات وتقاليد:

في مسألة **حلق الشَّعر أو تقصيره**، يفيدنا باديا أنه من المتعارف عليه أنَّ كلَّ مسلم يترك خُصلة من الشَّعر تنمو في وسط رأسه، لكنّ دعوة الشَّيخ محمد بن عبد الوهَّاب فرضت واقعاً آخر، فأصبح ترك هذه الخصلة يُعتبر مخالفاً لتعاليم الدِّين; وبما أنَّ نفوذ الدَّولة السُّعوديَّة قد وصل هذه الدِّيار[١]، "فقد وجدتُ نفسي مُجبراً على ترك خُصلة شَعري الطَّويلة تسقط على يد ذلك الحلاَّق العديم الرَّحمة[٢]".

ويعود للشَّعر مرَّة أخرى لكن من زاوية أخرى تتعلق باعتقادات كانت منتشرة في الوسط المكِّي، يوضح ذلك بقوله: "أردتُ تَركيب مِقياس الرُّطوبة، ولكن مَنعني من ذلك استحالة وجود شعر لمؤشِّر المقياس، سيبدو ذلك أمرٌ صَعب التَّصديق، لكن هذا هو الواقع، فضمن عدد كبير من النَّاس وفي مركز العاصمة،لم أستطع الحصول على شيءٍ منه، فالرِّجال حَليقو الرُّؤوس تماماً، والنِّساء بسبب المعتقدات الخرافيّة، فإنّهن لا يعطين شَعرةً واحدةً، فهنَّ مُقتنعات بأنَّ الرَّجل يَستفيد منها، لعمل رُقية تُوقع الضَّرر بها; ولهذا السَّبب، فعندما يمشطنَ شُعورهنَّ، يأخذنَ كامل الحيطة والحذر، وذلك بدفن الشَّعر السَّاقط سِرّاً، ولنفس السَّبب عندما يُقلِّمنَ أظافرهنَّ يعملنَ على إخفائها[٣]".ويذكر أنَّ ذلك كان سائداً عند الرجال أيضاً لكنَّ أتباع الدَّعوة الاصلاحيَّة لم يتحرَّزوا أن يتركوا المكان الذي حلقوا فيه مغطى بالشعر.

---

(١) من الجدير ذكره هنا، أنَّ الصَّحابة ومن جاء بعدهم ممن يُعتدُّ بهم من السَّلف، لم يُؤثر عنهم تَرك هذه الخصلة التي أشار إليها، لذا فإنَّ ما قام به أتباع الدَّعوة الإصلاحيَّة في إطار ما ذكره المؤلِّف لم يخرج عن منهج أهل السُّنة والجماعة.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص١٤٢.في هذا الصَّدد يذكر بوركهارت أن أتباع المذهب الحنفي يحلقون رُبع الرَّأس فقط، ويُبقون ثلاثة الأرباع من الشَّعر حتى يعودوا من العمرة الأخرى. أنظر: **رحلات** ص ٩٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٥٢.





كما لفت نظره عَمل ثلاثة شُقُوق عَموديّة على طُول كلِّ خَدٍّ، بحيث أنَّ أكثر الرِّجال يَحملون ستَّ ندبات في وُجوههم(١)، وعند سؤاله لتفسير ذلك،قيل له: بأنَّها إشارة إلى العُبوديَّة لبيت الله، لكنه عزا ذلك إلى بدع ذلك الزمان أو الموضة، التي جعلتهم "يَروْه جُزءاً من الجَمال، كما هو الحال مع الألوان الزَّرقاء والسَّوداء والحمْراء، التي تَتزيَّن بها النِّساء لصَبْغ وجوههنَّ; وهي نفسها التي تُجبرهنَّ على وضْع حَلقةٍ في الأنف، والرِّجال على حَمل الخنْجر الذي يُعيق كلَّ حَركة; عجيب أمر هذا الإنسان!!(٢)".

دفاعات مكَّة:

"مكَّة مدينة مَفتوحة بلا أسوار(٣)"، هكذا تراءت هذه المدينة للرَّحالة، لكن في الواقع هي تملك تحصينات دفاعيَّة طبيعيَّة، تمثلت بهذه الجبال العالية المحيطة بها، ومع ذلك يذكر قلعة **جبل جِياد**(٤)، وأهميتها الدفاعيَّة للمدينة، حتى أنَّ البعض ينظر إليها وكأنَّها جبل طارق ثان، ويرى باديا أنَّها بُنيت مجزَّأة وفي أزمنة متفرِّقة، بلا نظام وبدون مُخطَّط مُوحد(٥).

---

(١) هذا هو ما يُعرف بـ "الوَشْم" وقد لاحظ ذلك أيضاً بوركهارت، وأعطى توضيحاً أكثر مع شيء من الاختلاف عمّا أتى به باديا، فالشُّقوق لديه هي ثلاثة أو أربعة. لكن من جانب آخر فالمكيّين. حسب تعبيره. يَفخرون بهذا التّفرُّد الذي لا يشاركهم فيه البدُو، كما يَمنع سكَّان الحجاز الآخرين من ادّعاء شرف أنّهم وُلدوا في المدينة المقدَّسة. أنظر: **رحلات**، ص ١٧٠.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٥٥.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٥.

(٤) أمدّنا إبراهيم رفعت باشا بمعلومات في غاية الأهميّة حول هذه القلعة، وفيها يقول: "*قلعة جياد التي أنشأها في سنة ١١٩٦ هـ الشَّريف سرور بن مساعد أمير مكَّة بعد أن اشترى ما حولها من البيوت وأنفق في عمارتها مالاً كثيراً*"; كما ذكر قلعتين أُخريتين بناهُما الشَّريف غالب، أولاهما قلعة الهندي والأخرى قلعة لَعلع التي أنشأها أيام مُحاربة الوهَّابيِّين. حسب قوله. وغالب نفسه هو الذي أقام الأبراج بأطراف مكَّة، أنظر: **مرآةالحرمين**، ١/١٨٣.

(٥) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٦٥.

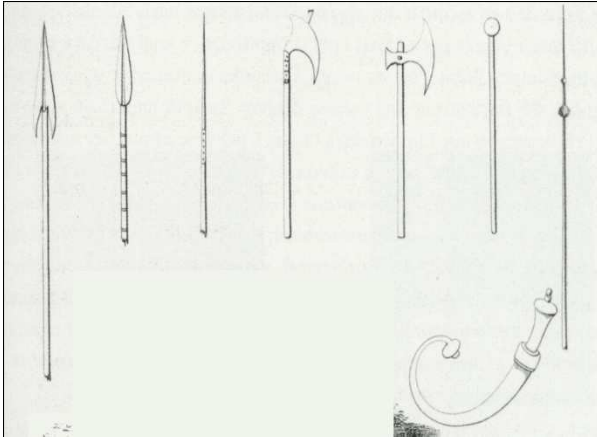
ويفيدنا بوجود عدد من الحصون والقلاع على مداخل المدينة وفي الأودية.

ويطرح فكرة قابلة للنِّقاش والمداولة تتعلق بهذا الجانب:

" يَحتفل المؤرِّخون بنُبل الأمَّة العربيَّة، التي لم تحنِ رأسها أبداً لسُلطان اليُونان أو الرُّومان، لكنَّ هذا استنتاج غير صحيح اعتماداً على الوقائع، فإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حافظت على استقلالها من كلِّ سيطرة أجنبيَّة، فإنَّ هذا الامتياز يعود إلى طبيعة البلد أكثر من طبيعة أهلها; فأيُّ قائد يمكن أن يُضحِّي بالرِّجال والمال، لفتح صَحراء شاسعة، وشُعوب غير قادرة على صُنع هيكل سِياسي؟

لكن عندما تَتوحَّد الأفكار الدِّينيَّة هُنا، تتَّحد كلُّ الأهداف التي لا تستطيع أن تَجمعها أيّة رَوابط أخرى، بسبب انعزال كلِّ قبيلة وجَفاف الأرض، ورَفض ثقافة الآخر، ممَّا يَنتج معه التَّقوقع على الأعراف الاجتماعيَّة التي عليها نشأوا وترعرَعوا[١] ".

السِّلاح:



يرسم صورة متواضعة لهذا الجانب، فلا يُوجد **بَائع أسلحة**، يستطيع أن يعمل مسماراً أو يضع قطعةً في صفيحة بندقيَّة أوروبيّة; وكلّ ما يجيده هؤلاء هو صُنع البنَادق الشَّراريَّة البدائيَّة.

(١) نفسه، ص٢٤٧.





والسَّكاكين المحدَّبة، والرِّماح، على أنَّ **الأسلحة**الأكثرشُيوعاً، هي الخنجر الكبير المعقوف، والرُّمح ذو الرَّأس المفلطح والهراوة، كما تُوجد البنادق لكن بقلَّة. وتَركيبة **غِمد الخَنْجَر**غريبة، ففضلاً عن المساحة التي يشغلها النَّصل، فإنَّ هناك امتداداً مُنحنياً شبه دائري، ومُنتهٍ بكُرةٍ أو تزويقٍ مُتداخل. كما يستعمل الرمح والهراوة والفؤوس وقد وصفها بدقَّة، لكن لفت نظره**بَنَادق البسْتُون** التي أعجبه شكلها مع أنها ثقيلةٌ جدّاً، وقد طلبوا منه ثمناً لها مَبلغ مائة وعشرين فرنك(١).

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٤٨-٢٥٠.

رابعاً : كتابات باديا في ميزان النَّقد والتَّقييم

١. أهميَّة الرِّحلة ومكانتها في قائمة الرَّحلات:

إذا نظرنا إلى هذه الرِّحلة من حيث الأهميَّة والمكانة، فسنجد أنها تتبوَّأ مكانةً مميَّزة بين مثيلاتها، ليس لأنَّها الأقدم فقط، بل للجرأة التي صاحبتها من قبل باديا الذي اخترق الحجب، وتتسلَّل كأحد أبناء الدَّار، ليصل إلى ما عجز عنه غيره ممَّن سبقوه أو جاؤوا بعده، وفي هذا الصَّدد، يمكن لنا أن نقارنه بما كتبه جون بوركهارت الذي جاء إلى مكَّة بعده بسنوات، واعتمده في كثير من الأمور التي وردت في كتابه، مع مُحاولته إخفاء ذلك، بحجَّة أنَّه اطَّلع على مُذكِّرات باديا بعد عودته إلى مصر، ومع أنَّه قد فصَّل في مواضع غَفل عنها باديا، وتوسَّع في أخرى اختصر فيها، إلاَّ أنَّ اطِّلاعه واستفادته منه لا يمكن إنكارها، خاصَّة وقد فضَح نفسه حينما انتقد باديا في مُخطَّطه الذي رسمه للحَرَم وكذلك الخارطة التي وضعها لمكَّة المكرَّمة، ثم ينتقده في مواضع أخرى من كتابه[١]، لكنَّه يعترف أنَّ باديا تفوَّق عليه في التَّمويه على من التقاهم في طريق رحلته إلى الحجِّ، حيث انكشف أمره على الأقلِّ لعلية القوم، بعكس صاحبنا الذي حافظ على تلك الشَّخصيَّة التي تقمَّصها[٢]. ولسنا بصدد المقارنة والتَّدقيق، لكنَّ الكثيرين ممَّن تناولوا سيرة باديا، وسجلِّ رحلته هذا، يؤكِّدون مكانتها، وقدر ما قدَّمته من معلومات عظيمة، تعتبر

---

(١) أنظر: **رحلات** ص ١٤٠، ١٦٦، ٢٣٢.

(٢) نفسه ص ٨١. ومما يجدر ذكره أنَّ هذا الرَّحالة السويسري الأصل بوركهارت تسمَّى بالحاجِّ إبراهيم بن عبد الله، وكان شاهداً على انحسار نفوذ الدَّولة السُّعودية، التي كان باديا شاهداً على سيطرتها على الحجاز، وقد انطلق من القاهرة ليصل إلى مكَّة المكرَّمة في ١٥ من يوليو سنة ١٨١٤م الموافق ٢٧ رجب سنة ١٢٢٩هـ إلى ٢٥ مايو ١٨١٥م الموافق ١٥ جمادى الثانية ١٢٣٠هـ، وكان يعمل لحساب الجمعيَّة الأفريقيَّة البريطانيَّة. أنظر مقدمة المترجم للرِّحلة، ص٦-١٠.





وثائقيَّة لأحداث عايَشها واطَّلع عليها بنفسه، خاصة دخول الجيش السُّعودي إلى مكَّة المكرَّمة، وما سجَّله لنا حول هذا الحدَث شاهد عيان، ثم مُقابلته للشَّريف غالب، وإفادتنا بمعلومات تتعلَّق بشخصيَّته وسياسته وتحالفاته، وهو ما يمنح الباحث في تاريخ هذه المنطقة معلومات في غاية الأهميَّة.

ولعلَّ اهتمامه بالقضايا السياسيَّة ومجرياتها، لم يُنسه التَّصوير الوصْفي الدَّقيق لما شاهده وعايشه، من مَشاهد اجتماعيَّة وانثروبولوجيَّة وجغرافيَّة وأثريَّة وعلميَّة، سواء في مكَّة المكرَّمة أو في جدَّة أو غيرها من الدِّيار والمواقع التي مرَّ بها، مُستخدماً أدواته القياسيَّة ابتداءاً من مقياس كثافة الرُّطوبة الجويَّة إلى آلة السُّدس والثُّمن وأجهزة الرَّصد الأخرى، وممَّا حمله معه من أدوات تحليل التُّربة والمياه، ولذا فقد أمدَّ علم الجغرافيَّة والفلك بمعلومات قيِّمة، تتجلَّى في تلك الملحوظات الفلكيَّة من تحديد مواقع الأماكن التي مرَّ بها على البحر الأحمر طولاً وعرضاً في إحداثيَّات تعتبر دقيقة وأوَّليَّة، ومُحدِّداً موقع المدينة المنوَّرة بشكل تقريبي، مع أنَّه لم يصل إليها، ومكَّة المكرَّمة بشكل صحيح، ولأوَّل مرَّة تمكَّن من تحديد الموقع العَرضي لبعض الأماكن داخل شبه الجزيرة العربيَّة بالنِّسبة إلى خطِّ الاستواء[1]، كما كانت ملحوظاته عن النَّاس وملابسهم وسلاحهم، عاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب التَّعليم ومدارسه، والنَّباتات وأنواعها، والجبال وصُخورها، والعُملة المتداولة والأسواق، خاصَّة في مكَّة المكرَّمة وجدَّة،بما يعدُّ إضاءة جديدة للباحثين في تاريخ هذه المدة.

أمَّا حديثه عن الحَرَم بمرافقه المتعدِّدة، والمناسك بمشاهدها المختلفة، فقد كان بمثابة آلة تصوير، تنقلنا من مَشهد لآخر; لكنَّه باعتباره رجلاً غربياً يُؤمن

(١) جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب**، ص١٨٥.

بالأشياء مجرَّدة من الغيبيَّات، التي نراها نحن المسلمون مُسلَّمات نأخذها بالقبول دون مُناقشة، ونُؤمن بها تعبُّداً كما وردت، وهنا نجده يطرح رُؤى نُخالفه فيها وأثبتنا ذلك في ثنايا التَّرجمة مثل قضايا المرأة وبئر زمزم.

ولعلَّ الظُّروف التي صادفت مَجيء باديا إلى الحجاز، قد صبغت انطباعاته بالسَّوداوية والتَّشاؤم، انظره مثلاً: عندما يكتب عن أهل مكَّة المكرَّمة في أشكالهم ونحافتهم، حدّاً وصل به إلى القول، بأنَّهم إلى الأشباح أقرب منهم إلى البشر الحقيقيين، ثم عن أحوالهم المعيشيَّة السيِّئة وتناقصهم المتزايد، وخراب أحياء أطراف المدينة وهَجْرها من قبل سُكَّانها; كلُّ ذلك قد يكون صحيحاً وغير مُبالغ فيه، لأنَّ مكَّة عاشت قبل ذلك سنوات عِجاف، من الحصار والصِّراع الدَّاخلي قبل الخارجي، والحروب المتقطِّعة التي دخل فيها الشَّريف غالب مع الدَّولة السُّعوديَّة، وضعٌ كهذا سينتج عنه ما ذكره باديا بلا شكّ.

وكان للمرأة في الجزيرة العربيَّة حضورها الواضح فيما دوَّنه باديا، وإن كان مُتناقضاً ومُتحاملاً في بعض الأحيان ومُنصفاً في أحيانٍ أُخر، ظهر ذلك في عدَّة مواقف، فحينما كانت المرأة حاضرة في قضيَّة حجِّ قافلة الشَّام هذه السَّنة التي كان فيها باديا، واشترطت قيادة جيش الدَّولة السُّعودية الأولى في المدينة المنوَّرة ـ حسب ما يرويه ـ على هذه القافلة أنَّ عليها لكي تُكمل حجَّها، إعادة النِّساء والجنود المسلَّحين إلى حيثما جاؤوا ـ وقد علَّقنا على هذا القول في مكانه ـ مع أنَّه يُؤكِّد على تواجد العُنصر النِّسائي بشكل أساسي في حجِّ هذه السَّنة، التي كان فيها الإمام سُعود وأنصاره من جماعة الدَّعوة الإصلاحيَّة ومعهم جمعٌ من النساء!! فكيف يُستساغ معه هذا القول المتناقض؟ أم أنَّ المرأة الشاميَّة كائن آخر؟ ممَّا يبدو معه أنَّ لديه عُقَده الخاصَّة تجاه المرأة كغيره من الغربيِّين، حينما يتعلَّق الموضوع




بالشَّرقيَّة منهنَّ، يأخذ الحديث مَنحى عاطفياً وأسطوريّاً، وتُصبح الكتابة عنه للتَّهريج وشدِّ فضول القارئ الغربي أكثر منها للكلام الموضوعي المتَّزن.

تبقى الوهَّابيَّة والوهَّابيُّون . كما يسميها . التي كان لها حضور متميِّز في ثنايا سجلِّ الرِّحلة، بل وإفرادها بفصل خاص بها، من أهمِّ وأبرز المواضيع التي تطرَّق لها، وأصبح فيها مَرجعاً لغيره من الأوربيِّين، من رحَّالة وغيرهم ممَّن جاؤوا بعده، سواء فيما يتعلَّق بمبادئها وأفكارها، أو بالدَّولة التي حمتها ورعتها وتبنَّتها. ومع تحفُّظنا على هذا المسمَّى الذي أطلقه خُصوم الحركة الإصلاحيَّة تشويهاً لها وتنفيراً منها، وما يحمله من دلالات لدى القارئ الغربي، خاصَّة وقد عادت الآلة الإعلاميَّة الغربيَّة من جديد لتدُقَّ على هذا الوتر، وتُحمِّل هذه الحركة الإصلاحيَّة نتيجة تَراكمات وأخطاء كان للغرب أنفسهم فيها النَّصيب الأوفى، ممَّا أفرز معه هذه الحالة التي يَعيشها عالم اليوم من التَّشدُّد ورفض الآخر ومَوجة الغليان في كلا الجانبين سواء الغربي أم الإسلامي. ومع أنِّي قد حافظتُ على حرفيَّة النَّص الأصلي للمؤلِّف فيما يتعلَّق بهذا المسمَّى، دون مُوافقة أو استحسان له، لكنِّي لجأتُ إلى التَّعليقات والشُّروحات التي توضِّح الصَّواب وتجلي الغُموض وتُبرئ الذمَّة، وهو أسلوب سار عليه من نعتبرهم أساتذة لنا في هذا المجال[١].

وعند تحليل ما كتبه باديا حول الدَّعوة الإصلاحيَّة والدَّولة السعوديَّة الأولى نجد الكثير من الإنصاف والعقلانيَّة والوصف المجرَّد، حتى وهو في أوج غضبه

(١) أنظر مثلاً: عبد الله بن صالح العثيمين: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين** للرَّحَّالة جوهان بوركهارت، الرياض ١٩٩١م ص ٨ ; لي ديفيد كوبر: **كتابات الرَّحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهَّابيَّة في القرن التاسع عشر**، القاهرة ١٩٩١، تعليقات المترجم: عبد الله بن ناصر الوليعي، الصفحات: خ، د، ذ ; جان ريمون: **التَّذكرة في أصل الوهَّابيِّين ودولتهم** ترجمة: محمد خير البقاعي، تعليقات: أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، منشورات الدارة الرياض ١٤٢٤هـ ص ٢٤.

وانكساره عندما أجبروه على التَّراجع ومَنعوه من مُواصلة رحلته إلى المدينة المنوَّرة، بل وسَلبوه بعض أدواته واضطرُّوه إلى إتلاف العيِّنات التي يحملها من نَبات وصُخور وحَشرات، كان يُزمع دراستها وتصنيفها، مُوحين بأنَّ ذلك تنفيذاً لأوامر قد جاءت من الإمام سُعود، بمنعه وإعادته من حيث جاء بطريقة فضَّة، ومع كلِّ ما تعرَّض له نجده يقول: "*أستطيعُ القول مُردفِاً بسَعادة: أنَّه على الرَّغم من هذه المَشاكسة السيِّئة، إلاَّ أنَّها أبقتْ لديَّ الشُّعور بالأسى، لأنَّي خَسِرتُ رِحلةً مُهمَّة*[1]" ثم يسوغ ما حدَث بأنه اجتهاد من السُّكان المحلِّيين، "*هؤلاء العَرب على الرَّغم من أنَّهم وهَّابيُّون، وتابعون لـ (السُّلطان) سُعُود، فإنَّهم من سُكَّان البلد الأصليِّين وخاضعون جُدد للسُّلطة، ولهذا فهم يَختلفون كثيراً عن أولئك الشَّباب الوهَّابي اللاَّمع في الشَّرق، الذين رأيتُهم منذُ مدة قصيرة في مكَّة. ولهذا فقد أعفيتُ هؤلاء بنيَّةٍ خالصةٍ فيما سَلبوه منِّي،وأقصدُ به الآلة والبُرنس، وأعتبرُ تلك من بَقايا عُيوب البلد القديمة، وأشكُرُ إصلاح (ابن)عبد الوهَّاب، الذي ترك لي حاجاتي الأخرى وأجهزتي الفَلكيَّة*[2]". كما نعتهم بالأمانة والنزاهة في عدَّة مواقع، وأكَّد على أنَّ الشَّيخ محمد بن عبد الوهَّاب - رحمه الله - "*لم يقدِّم نفسه باعتباره نبيّاً مُرسلاً أبداً البتَّة، كما أراد البعض تصوير ذلك، وإنَّما اقتصر على كونه شيخاً مصلحاً، أراد تَصفية العقيدة من كلِّ الإضافات التي أضافها الأئمَّة والشُّراح أو العلماء، وإعادتها كما كانت في بدايتها النقيَّة وكما جاءت في القرآن*[3]" مع أنَّ الأمر لا يخلو من هنَّات وزلَّات علَّقنا عليها في مواضعها.

(1) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٣٣٣-٤.
(2) نفسه، ص٣٣٤-٥.
(3) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٨٨.




كما أبدى بعض المآخذ والملحوظات التي استنتجها بنفسه وعايشها، وذكر أنَّ هؤلاء لو تخلَّصوا منها فسيكون لهم شأن كبير في ميدان التَّوازن والنُّفوذ بين القوى المسيطرة آنذاك[١]. لكن مع ذلك، نشتمُّ من كتاباته التي تشبه التَّقارير رائحة الكيد والتَّآمر أحياناً، فنجده يصف ويحلِّل ويستنتج، وكأنَّه يضع الخطط لأسياده، ويدلهّم على مواطن القوَّة والضَّعف لدى الدَّولة الناشئة في قلب الجزيرة العربيَّة، انظره مثلاً حينما يصف طريقة دفاعاتهم وتكتيكاتهم ضدَّ الخصم في الفصل الثامن[٢]. وتستمرُّ هذه الفكرة معه وداخل مَشروعه حتى بعد مُغادرته الجزيرة العربيَّة، فحين وصل إلى سوريا نجده يدوِّن ما يَتداوله البعض هناك، من أنَّ نُفوذ الحركة الإصلاحيَّة والدَّولة السعوديَّة الأولى، قد وصل إلى هذه المناطق، وأنَّها قد دخلت فيما يُشبه الحلف والتَّعاون مع قبيلة عنزة في رواية، وفي أخرى أنَّ هذه القبيلة وقفت منها موقفاً عدائيّاً ويحاول أن يوفِّق بين الرِّوايتين[٣].

فيما يتعلَّق بجديد هذه الرِّحلة وإضافاتها التي زوَّدت بها قرَّاءها، فلا شكّ بأنَّها ليست بالقليلة في مقياس تلك المدة، ولو تَتبَّعنا ما ورد فيها من أفكار وأطروحات، لاستخرجنا كمّاً ليس بالقليل منها، ويكفي الإشارة إلى نموذج منها، يخصُّ **قناة السُّويس** التي لم تُنشأ بعد في هذه المدة[٤]، لقد طرح فكرتها علي باي على أساس أنَّ منسوب البحر الأحمر أقلّ من البحر المتوسط، وعليه فإنَّه ينصحُ الأوربيِّين خاصَّة ذوي المصالح في المحيط الهندي أن يفتحوا خطّاً مباشراً عن

---

(١) نفسه، ص٢٩٩.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني ...**، ص٢٩٧.

(٣) **الرحلة**، ط. مدريد ص ٤٢٨.

(٤) كان افتتاحها سنة ١٨٦٩م كمشروع فرنسي يهدف إلى خدمة مصالحها في الشَّرق الأقصى، أنظر: فاروق أباظة: "أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر" ضمن سجل **ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ** القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ص٢٧١-٢٨٢).





طريق البحر الأحمر دون أدنى صعوبات، جاءت هذه الفكرة بعد دراسة وتأنٍّ، فقد ترك المركب وسلك طريق البرِّ في هذه النقطة بالذَّات ليثري فكرته بالقياس العملي الميداني(١)، لاسيَّما وقد أصبح الموضوع حديث ذوي الاختصاص والسَّاسة في فرنسا لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق قناة مائية(٢)، فأراد أن يُدلي بدلوه في الموضوع.

وفي **الجزيرة العربيَّة**، نجد دومنجو باديا بشخصيَّة يلفُّها الغموض، فهو تارةً الحاجُّ الذي شدَّته عظمة المكان وقدسيَّته وألهبت مشاعره الدينيَّة، وأخرى هو ذلك الباحث المنقِّب والسَّاعي إلى الاستكشاف والسَّبق في ميادين لم يسبقه إليها أحد من أقرانه، ولذا فهو يَسعى جاهداً لرصد المزيد ممَّا صادفه من أحداث ومواقع وشخصيَّات، نجح في تصويرها لنا وإبرازها في إطارٍ لوَّنه بريشته، ومرَّة ثالثة هو ذلك الذي أقحم نفسه في أمورٍ ما كان له أن يخوض فيها أو يناقشها دون علمٍ ورويَّة واطلاع كقضيَّة الحجر الأسود مثلاً، ثم أخيراً هو ذلك الذي كذب الكذبة وصدَّقها، حيث امتزج بتلك الشَّخصيَّة التي ادَّعاها وتصرَّف بوحيٍ منها، حتى أنَّ أقرب المقرَّبين منه يَصعب عليه اكتشاف شخصيَّته الحقيقيَّة، وهذا هو سرُّ نجاح مهمَّته، خاصَّة وقد صاحبها سعة خيال وكَرم وهدايا تُقدَّم بمناسبة وبغيرها، ممَّا أكسبه محبَّة من حوله ومن قابلهم من كبار المسئولين، كشيخ الزَّمازمة مثلاً.

لكن يبدو باديا هنا صاحب المهمَّة، فهو المكتشف للأرض والشَّعب، وأولئك الذين سبقوه لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولم يعرفوا ما عرفه في جزيرة العرب، لذا نقرأ بين سُطوره مظاهر الفخر والاعتزاز.

(١) **الرحلة**، ط. مدريد ص٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) شوقي الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، القاهرة ١٩٧٤م ص٢٢.





٢. المآخذ والعيوب:

قبل أن نصدر أحكامنا عليه أن ندرك أنَّ هذه الانطباعات التي تناثرت في ثنايا العَرض والوصف لوقائع الرِّحلة، هي لرجل غربي يَحكم على الأشياء من خلال مُنطلقاته الفكريَّة والمنهجيَّة، ولذا فقد تكون له أحكامه التي لا نُقرُّه عليها، خاصَّة مع جهله بالمنطقة وتاريخها ومعالمها، وأحياناً بعض مَناسك الحجِّ الأساسيَّة. ولذا فإن الأمر لا يخلو من مآخذ وزلاَّت، توقَّفنا عند بعضها وتركنا بعضها الآخر لفطنة القاري وقوَّة حدسه وتقديره.

ولعل أوَّل مآخذنا على الكاتب هو عدم اهتمامه في توثيق ما يرويه لنا من معلومات أثناء تجواله، حيث اعتمد بشكل رئيس على الوصف والمشاهدة، وعلى الرُّواة الذين يُصادفهم، أو مرافقيه من الجالية المغربيَّة التي عدَّ نفسه أحد أفرادها، وعلى ما يتناقله النَّاس من أحاديث عن تلك الأماكن التي زارها، يتَّضح هذا جليّاً فيما رواه عن مكَّة المكرَّمة ومعالمها، حيث لم نجده يشير إلى أي مصدر مكتوب، بعكس الرحَّالة الآخرين الذين اعتمدوا على مصادر مكتوبة، فيما قصُّوه لنا من حكايات وأحداث، ولو على الأقلّ فيما يتعلَّق بتاريخ الأماكن التي زاروها، فبوركهارت مثلاً. صدَّر لنا كتابه بمصادر مكتوبة عن تاريخ مكَّة، استند عليها فيما رواه عن أصلها ونشأتها، وآخرون أشاروا إلى اعتمادهم على مصادر مكتوبة أثناء حديثهم، أمَّا صاحبنا فلم يُشر إلى أيٍّ من ذلك. هذا الاعتماد على الرِّوايات الشَّعبيَّة وما يتداوله النَّاس، أسلوب سار عليه غيره من الرَّحالة الغربيِّين من بعده وقبله، لكنه قد يضعف التوثيق، وبالذَّات عندما يتلقف ما يسمع دون تحقيق أو تدقيق، كما هو الحال عندما ينسب إلى السُّعوديين والحركة الإصلاحيَّة هَدْم العديد من القُصور والمباني، التي لا تدخل في المحظور الذي ألزموا أنفسهم بإزالته، ولعلَّ مرد ذلك إلى رواية خُصومهم التي سجَّلها دون فحصٍ أو نقاش.

كما نجد صدى ما التقطه من أفواه الرُّواة دون تمحيص مُتناثراً فيما دوَّنه، فمثلاً حينما حدَّد المسافات بين المدينة المنوَّرة والدِّرعية وبينها وبين البحرين كانت الأرقام غير مُطابقة ولا دقيقة; مثلها عندما حاول مُجتهداً أن يُعلِّل كون الحجر الأسود في موقع أسفل من الباب، وخرج بنتائج فجَّة، لأنَّه لم يُكلِّف نفسه عناء الرُّجوع إلى المصادر واستشارتها في هذا الموضوع لتُعطيه الجواب.

كما نَلحظ الشُّموليَّة ومحاولة الإحاطة بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ يُصادفها في طريق رحلته هذه، وهي وإن عُدَّت من المحاسن إلاَّ أنها أثَّرت على معالجته للموضوع الذي هو بصدده، ولذا، نجده فجأةً ينتقل من موضوع لآخر، ليحيط القارئ علماً بهذا المستجدّ أو الطَّارئ، الأمر الذي أوقعه في التِّكرار حيناً، وعدم التَّرابط الموضوعي في أحيانٍ أُخر، ومثله التَّضارب في أقواله وأحكامه، وقد أشرنا إلى بعضٍ منها في أماكنها.

لكن مع هذه التَّغطية الشَّاملة نجد باديا قد غَفَل عن موضوع مُهمٍّ وهو **قافلة الحجِّ المصريَّة** التي من المفترض أنَّه كان مُرافقاً لها، أو على الأقلِّ قريباً منها، فما سرُّ هذا الصَّمت؟ لاسيَّما وقد تحدَّث عن قافلة الشَّام في أكثر من مُناسبة؟ فهذه القافلة قد سُمح لها بالحجِّ، لكن أميرها قد استُدعي من قبل الإمام سُعود، ونُبِّه إلى عدم إحضار المحمل واستعمال الطُّبول في العام القادم، وإلاَّ سيُواجَه بحرقها(١).

(١) أنظر: عبد الرحمن الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بيروت؟ ١٨٩/٣ وقد ذكر خطئاً إبراهيم باشا بأنَّ المحمل المصري قد أحرق في هذه السنة ١٢٢١هـ من قبل ابن سُعود. انظر: **مرآة الحرمين أو الرِّحلات الحجازيَّة** والحجّ ومشاعره الدينيَّة ؟ ٣٠٨/٢; كما أشار آخرون إلى انقطاع الحجِّ المصري في هذه السَّنة، انظر: ج جلوريمر: **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، جمع وتعليق محمد الخضيري مطبوعات الدَّارة الرياض ١٤٢٢هـ ص٦٥ وهامش (٢); لكن لو كان الأمر كذلك، لما كانت كسوة الكعبة الجديدة التي يُحضرها المحمل المصري معه كلَّ عام، والتي تحدَّث عنها باديا بإسهاب عند حديثه عن كسوة الكعبة; لكن من المؤكَّد أنَّهم مُنِعوا من زيارة المدينة المنوَّرة هذه السَّنة كما يقول الجبرتي (نفسه ٢٠٤/٣) .

ولعلَّ أسلوب التَّعميم الذي دَرج عليه باديا في أحكامه، نتيجة الأحكام المسبَّقة التي كان مُتشبَّعاً بها، أثَّرت على موضوعيَّته ومنهجيَّته.

٣. طَريقة مُعالجته للمواضيع التي تَطرَّق لها:

كما ذكرنا سابقاً أنَّ باديا اعتمد على الوصف الدَّقيق لما شَاهده، والنَّقل الأمين لما صَادفه ورَواه، وإن اتَّضحت شَخصيَّته وتجلَّت في ثنايا ما يكتبه، فقد حاول أن يحيط نفسه بهالةٍ من العظمة والأبهة، وهي طريقة أفادته كثيراً في الوصول إلى ما يريد، ولعلَّ في قصَّته مع حاكم جدَّة وفي جامعها ما يُؤكِّد ما نقول، كما كان أحد المرافقين للشَّريف في غَسْل الكعبة، ونال لَقَب "خادم بيت الله"، وهذا الاعتزاز بالنَّفس، واصطناع الأبَّهة والمكانة،لم تُقلِّل من قيمة ما كتبه، ولا من تلك الآراء والأفكار التي تناثرت فيما دوَّنه لنا في مُذكِّراته، سواءً وافقناه فيها أو لم نوافقه، فعندما يجزم أنَّ داخل الجزيرة العربيَّة سَلِم من الاستعمار ليس لشجاعة في أهلها ولا لقوَّة دفاعاتها، وإنَّما لطبيعتها الفقيرة البائسة، وصحاريها القاحلة المهلكة، فهو يَطرح فكرة قابلة للأخذ والرَّد، لكنَّها تُفصح عن شخصيَّة قائلها، ومدى محاولة تَفهُّمه لوضع الجزيرة وأهلها. ومثلها عندما يقول في الفصل الثامن: "*أعتقدُ بأنَّ الوهَّابيِّين في عُمق صَحرائهم، سيظَّلُّ النَّصر دائماً حليفهم، ليس ذلك بسبب قُوَّتهم العسكَريَّة وإنَّما لطبيعة بلادهم، التي لا تَصلح لسَكن أي أُمَّةٍ أخرى، ولسُهولة اختفائهم والهرَب من قَبضة أعدائهم*[١] "، ومع ما فيها من المبالغة، إلاَّ أنَّها تُوضِّح رسوخ الفكرة السَّابقة لدى الكاتب ومحاولة بناء أحكام عليها.

(١) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ....، ص٣٠١.

كما يقرِّر حقيقة نُوافقه عليها، وهي أنَّه "*عندما تَتوحَّد الأفكار الدِّينيَّة هُنا* . في الجزيرة العربيَّة. *تَتَّحد كُلُّ الأهداف التي لا تستطيع أن تَجمعها أي رَوابط أخرى، بسبب انعزال كلِّ قبيلة وجَفاف الأرض، ورَفض ثقافة الآخر، مِمَّا يَنتج معه التَّقوقع على الأعراف الاجتماعيَّة التي عليها نشأوا وترعَرعوا*[1]".

وحينما يتحدَّث عن أحوال الطَّقس والبيئة في مكَّة المكرَّمة، يؤكِّد على أنَّه صِحِّي، "*فليس هناك الكثير من المرضى، ولا حتى الأمراض المزمنة، ولكن لا يُوجد في الوقت نفسه شُيوخ بعُمرٍ مُتقدِّم، كما لا يُوجد عميان، ولا أمراض عُيون، مثلما هو شَائع في مِصر*[2]" وهو استنتاج جاء بعد قياس ودراسة.

وعندما يتطرَّق لموضوع طريف هو "الوشم" الذي كان سائداً زمن مجيئه إلى مكَّة المكرَّمة، فإنه يعزو ذلك إلى ماخرج به أهل ذلك الزَّمان، "*تلك التي حَملت هؤلاء على مثل هذا العمل، لأنَّهم يَروْه جُزءاً من الجَمال، كما هو الحال مع الألوان الزَّرقاء والسَّوداء والحمْراء، التي تَتزيَّن بها النِّساء لصَبْغ وجوههنَّ؛ وهي نفسها التي تُجبرهنَّ على وضْع حَلقةٍ في الأنف، والرِّجال على حَمل الخنْجر الذي يُعيق كلَّ حَركة، عجيب أمر هذا الإنسان!*[3]".

من هنا نجد أنه استخدم أسلوب العرض المجرَّد والوصف الدقيق، كما لجأ إلى القياس والتحليل ومن ثمَّ الاستنتاج.

---

(١) نفسه، ص٢٤٧.

(٢) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٥٣.

(٣) السنيدي: **رحَّالة إسباني** ...، ص٢٥٥.

ختاماً:

قضايا متعدِّدة تعرَّض لها هذا الرَّحالة، تستحقُّ منّا الدِّراسة والتَّحليل، فهذه الرِّحلة جديرة بالاهتمام، لما تطرقت إليه من قضايا متعدِّدة، وما حملته من معلومات ثريّة، تجعل منها مصدراً مهمّاً وغير مسبوق، لا يستغني عنه أيُّ باحث في تاريخ تلك البلاد التي قصدتها هذه الرِّحلة في تلك المدة، خاصَّة مكَّة المكرَّمة التي أولاها اهتماماً خاصّاً، وصوَّر لنا بدقَّة كلَّ ما وصلت إليه قدماه، أو اطلعت عليه عيناه.

وقد حاولنا أن يشاركنا القارئ الكريم في جولتنا هذه، فيما دوَّنه باديا في سجلِّ رحلته إلى مكَّة، عارضين لما كتبه مع التعليق والتحليل والنَّقد كلَّما تطلَّب الأمر.

نسأل الله لنا التوفيق والقبول

أ. د. صالح محمَّد السنيدي

الرياض ٢٠/١٠/١٤٣٥هـ

المصادر والمراجع

أولاً. المصادر والمراجع العربيَّة والمعرَّبة:

. جيمس أنتوني فرويد: **التنافس البريطاني الإسباني الفرنسي في القرن السادس عشر حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية**، ترجمة: السيد يوسف نصر، الإسكندرية ١٩٩١م.

. أ. ج. سوانسن كوبر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ترجمة صادق عبد الركابي، الأردن، عمان ٢٠٠٤م.

.إبراهيم رفعت باشا : **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينيَّة**.

. ابن بشر: عثمان بن عبد الله ; **عنوان المجد في تاريخ نجد** ج١ ط. دارة الملك عبد العزيز الرياض ١٩٨٢م.

.ابن عبد السلام الدرعي المغربي:**ملخص رحلتيه**، عرض وتلخيص: حمد الجاسر، منشورات دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣م.

. أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي: **أخبار مكَّة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: رشدي الصالح ملحس بيروت ١٩٧٩م.

.أحمد السباعي: **تاريخ مكَّة**، مكة المكرمة ١٣٩٩هـ.

.إسماعيل حقي جارشلي: **أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني**، بيروت ٢٠٠٣م.

.أمين سعيد: **تاريخ الدولة السعودية**. ط. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.

.بيتر برينث: **بلاد العرب القاصية**، ترجمة: خالد عيسى وأحمد إسبانو بيروت ١٩٩٠م ص.

.**التّداوي بالأعشاب والنباتات قديماً وحديثاً**، جمع مواده ونسقها وقدم له: أحمد شمس الدين، بيروت ١٩٩١م.

.ج جلوريمر: **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، جمع وتعليق محمد الخضيري مطبوعات الدَّارة الرياض ١٤٢٢هـ.

.جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب** ترجمة قدري قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض.

. جان ريمون: **التَّذكرة في أصل الوهَّابيِّين ودولتهم** ترجمة: محمد خير البقاعي، تعليقات: أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، منشورات الدارة الرياض ١٤٢٤هـ.

. جوزيف بيتز: **رحلة جوزيف بيتز إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ القاهرة ١٩٩٥م.

. جيرالد دو غوري: **حكَّام مكَّة**، ترجمة محمد شهاب، القاهرة ٢٠٠٠م

. حسين باسلامة: **تاريخ الكعبة المعظَّمة**، تعليق يوسف الثقفي الرياض ١٤١٩هـ.

. حسين بن غنام الأحسائي: **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وغزوات ذوي الإسلام**، ط. القاهرة ١٣٦٨هـ ج١.

. حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، الرياض ١٩٧٧.

. داود بن عمر الأنطاكي: **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، بيروت.

. روبن بدول: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة: د. عبد الله نصيف، جامعة الملك سعود الرياض١٩٨٩م.

. ريتشارد بيرتون: **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥م.

. السنبدي: صالح محمد، **رحالة إسباني في الجزيرة العربية** (رحلة علي باي العباسي)، ترجمة ودراسة وتعليق، الناشر: دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٢٩هـ.

. سيد عبد المجيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، جدَّة١٩٨١م.

. شوقي الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، القاهرة ١٩٧٤.

. عاتق البلادي، **معالم مكَّة التأريخية والأثرية**، دار مكَّة ١٩٨٣م.

. عاتق بن غيث البلادي: **رحلات في بلاد العرب**، مكة المكرمة ١٩٨٣م.

. عبد الرحمن البهكلي: **نفح العود في سيرة دولة الشَّريف حمود**، ط. الدارة الرياض ١٩٨٢م.

. عبد الرحمن الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بيروت.

. عبد الرحمن الجزيري: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، القاهرة ١٩٧٠م.

. عبد الرحمن بن علي العريني: **الإمام محمد بن سُعُود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى**، مطبوعات المئوية الرياض ١٤١٩هـ.

. عبد العزيز راشد السنيدي: **الحياة العلمية في مكَّة المكرمة**، الرياض ٢٠٠٣م.





.عبد اللطيف بن دهيش: **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السُعُودي**، الرياض ١٩٩٩م.

.عبد الله بن خميس: **معجم جبال الجزيرة**، ج ٥، ط١، الرياض١٤١٢هـ.

.عبد الله بن صالح العثيمين: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين للرَّحَّالة جوهان بوركهارت**، الرياض ١٩٩١م.

.عبد الملك بن هشام: **السِّيرة النَّبوية**، ط. القاهرة ١٩٥٥.

.أبو بكر الرَّازي: **كتاب القُولنج**، تحقيق وترجمة: صبحي حمامي، ط. جامعة حلب ١٩٨٣م.

.لي ديفيد كوبر: **كتابات الرَّحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهَّابيَّة في القرن التاسع عشر**، القاهرة ١٩٩١، تعليقات المترجم: عبد الله بن ناصر الوليعي.

.محمد أديب غالب: **من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**، دار اليمامة الرياض ١٩٧٥م.

.محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية: **الطب النبوي** ط. بيروت.

.محمد بن أحمد الفاسي: **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ج١ بيروت ١٩٥٦م.

.محمد بن أحمد بن جبير: **رحلة ابن جبير**، ط. بيروت ١٩٦٨م.

.محمد بن سليمان الخضيري: **الدولة السُّعوديَّة الأولى والدولة العثمانية**، الرياض ١٤٢٠هـ.

.محمد كمال جمعة: **إنتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربيَّة**، ط. الدارة الرياض ١٩٨١م.

.محمد بن هاديء العجيلي: **الظلّ الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سُعُود الأولين.** المنشور بعناية وتحقيق: عبد الله أبو داهش، أبها ١٩٨٨م.

.مسعود محمد آل زيد: **تاريخ مكَّة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد**. القاهرة٢٠٠٥م.

.هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**. ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٩م.

ثانياً. المصادر والمراجع الأجنبيَّة:

- DiccionarioenciclopedicoLAROUSSE, ed. Planeta, Barcelona 1985.
- DOMINGO BADIA Y LEBLICH, **Viajes de Ali Bey el AbbassiporAfrica y Asia**, t.3. Valencia 1836.
- DOMINGO BADIA, (Ali Bey) **ViajesporMaruecos, Tripoli, Grecia y Egipto,** Prologo de Juan Goytisolo, Barcelona,1984. t.1.
- DOMINGO BADIA, **Viajespor Arabia, Palestina, Siria y Turquia**, Prologo de Juan Goytisolo, Barcelona,1984. t.2.
- DOMINGO BADIA, (Ali Bey), **Peregrino a la Meca**, Madrid, 1998.
- DOMINGO BADIA, **Viajesdelprincipe Ali Bey el Abbasi en Maruecos, Tripoli, chipre, Egipto, Arabia, Siria y Turquia**, Madrid.1982.
- JULIO ROMANO, **Viajes de Ali Bey el Abbasi**Madrid, 1951.
- VariosAutores,**Ali Bei** ; Museuetnologic. Barcelona 1996.

ثالثاً: الدَّوريات والنَّدوات والموسوعات:

. الطاهر أحمد المكي: "أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر" **مجلة الفكر العربي**، عدد ٥١ يونية ١٩٨٨م.
. عبد الحفيظ حمَّان في بحث مختصر بعنوان: "رحلات الأوروبيين إلى شمال إفريقية في مطلع القرن التاسع عشر" ضمن بحوث ندوة: **مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي** التي أقامتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
. عبد الحفيظ حمَّان: "الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنجو باديا في بداية القرن التاسع عشر" **مجلة التاريخ العربي عدد** ٢٣ سنة ٢٠٠٢م.
. عبد الله بن صالح الرقيبة: "الأماكن المقدسة والحجّ"، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٩٩م م٣ ق١.
. السنيدي: صالح محمد،"مصر في مذكرات الرحالة الإسباني دومنجو باديا أو علي باي العباسي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي"نشرت في سجلات ندوة اتحاد المؤرخين

العرب بالقاهرة، التي حملت عنوان: **العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة،** سنة٢٠٠٤م.

.عبد الله ناصر الوليعي: "البنية الجيولوجية والتضاريس" ، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي،** م٣ ق١

.فاروق أباظة: "أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٦٩-١٩١٤" ضمن **ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ**التي أقامها اتحاد المؤرخين العرببالقاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

.محمد زكريا عناني: " مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ونابليون" **مجلّة الدَّارة،** عدد ٤ السنة الحادية والعشرون.

الـمـلاحـــق



دارة الملك عبدالعزيز

١٧

رحالة إسباني في الجزيرة العربية

رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة

سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م

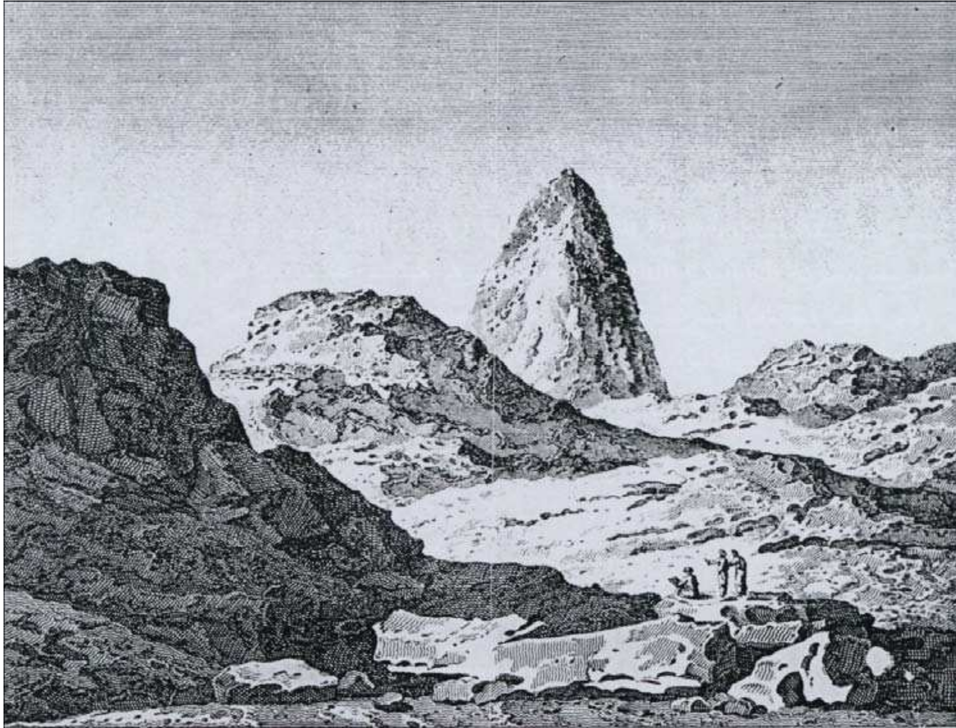
ترجمه ودرسه وعلق عليه

د. صالح بن محمد السنيدي

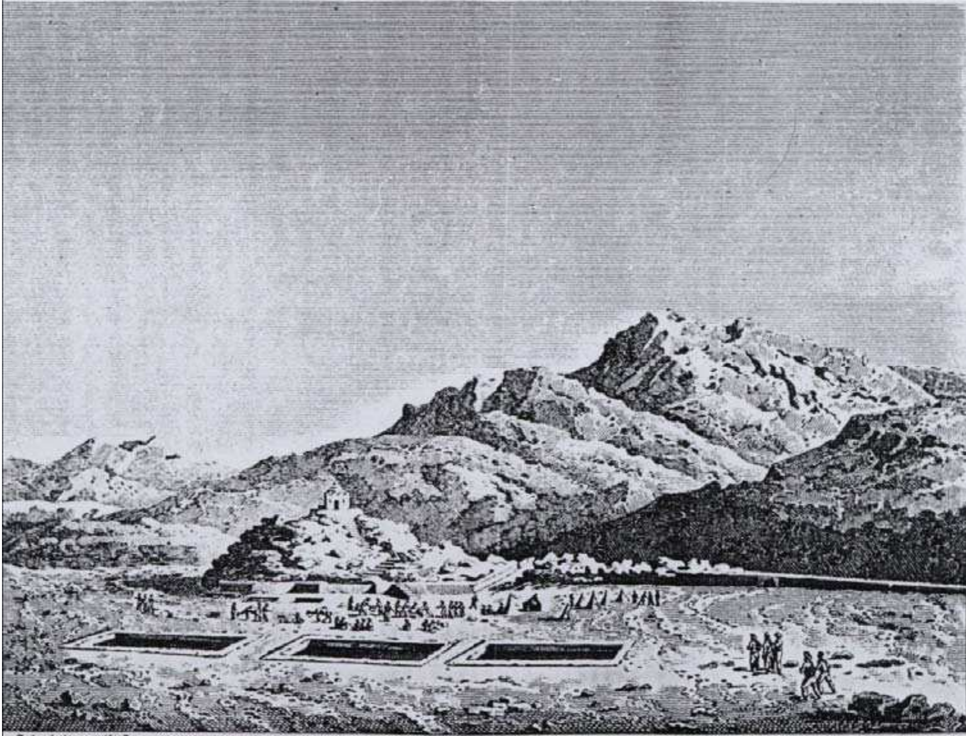
نقش على الخشب لصورة علي باي (دومنجو باديا) عملها: E. C. Ricart



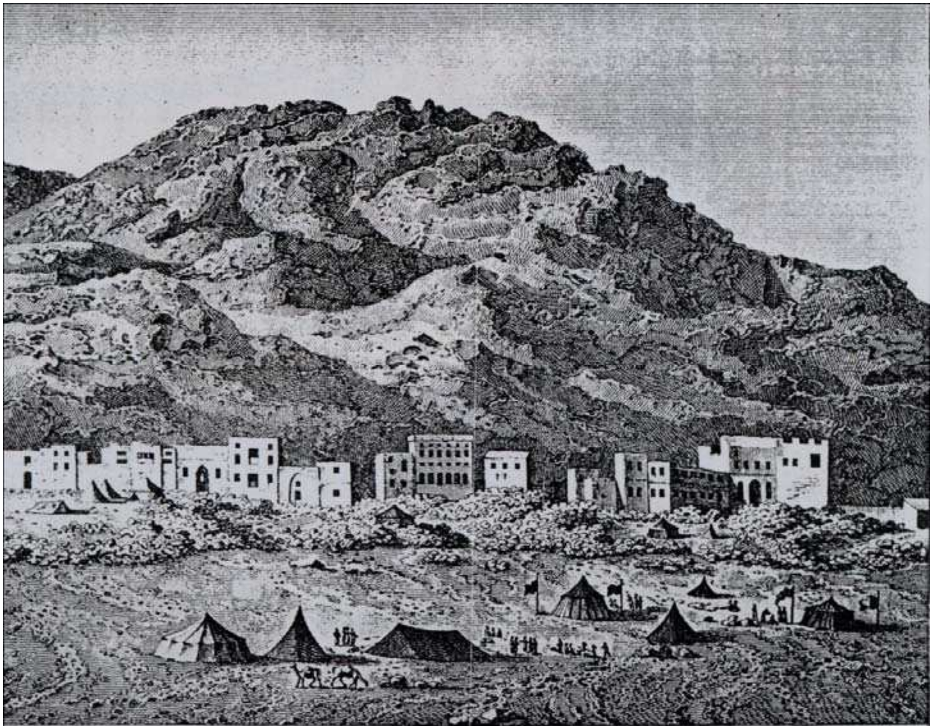

"علي باي في الصَّحراء" كما تخيَّله أحد الفنَّانين



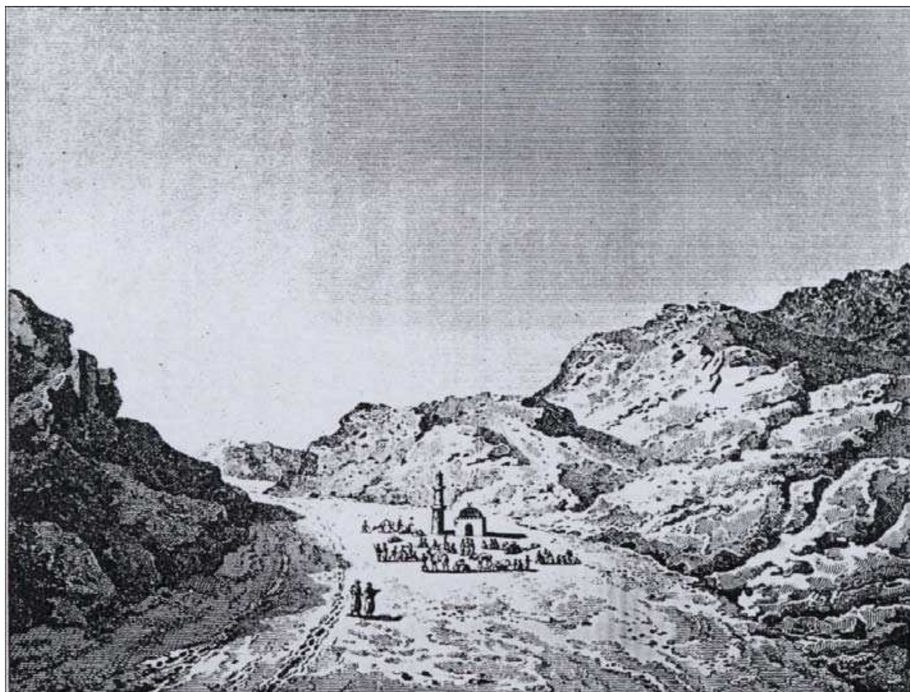
جبل النُّور في مكَّة المكرَّمة



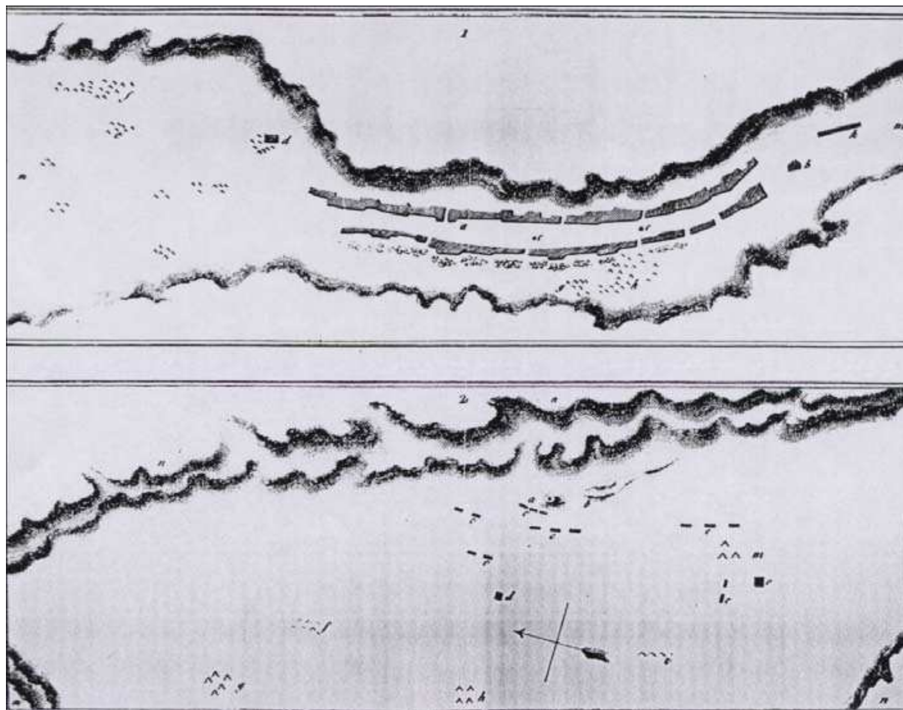
منظر عَرفات ويبدو جبل الرَّحمة



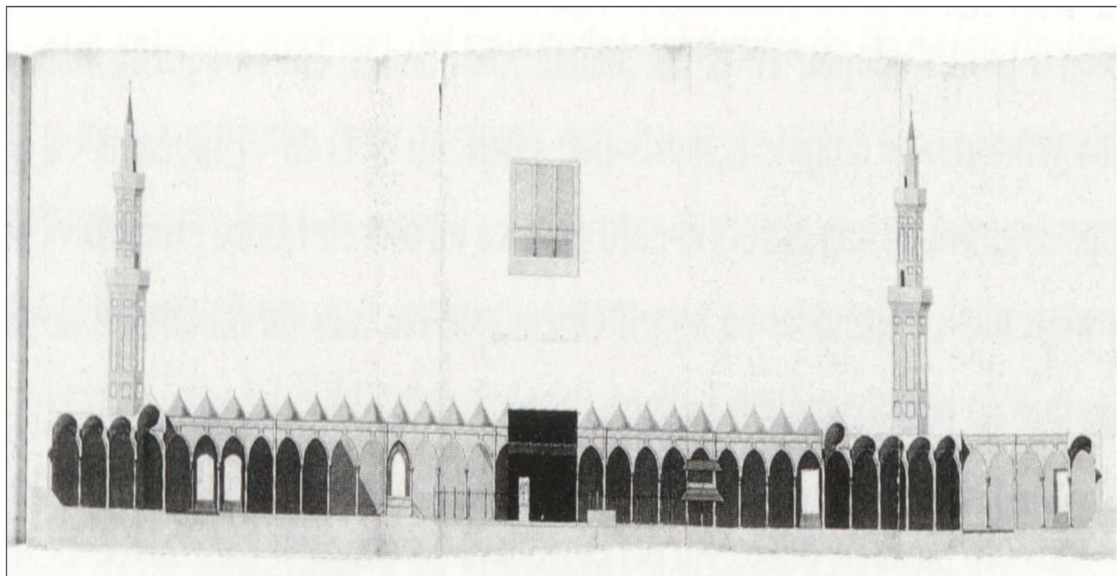
منظر لمنى ويبدو مخيم علي باي بعد عودته من عرفات



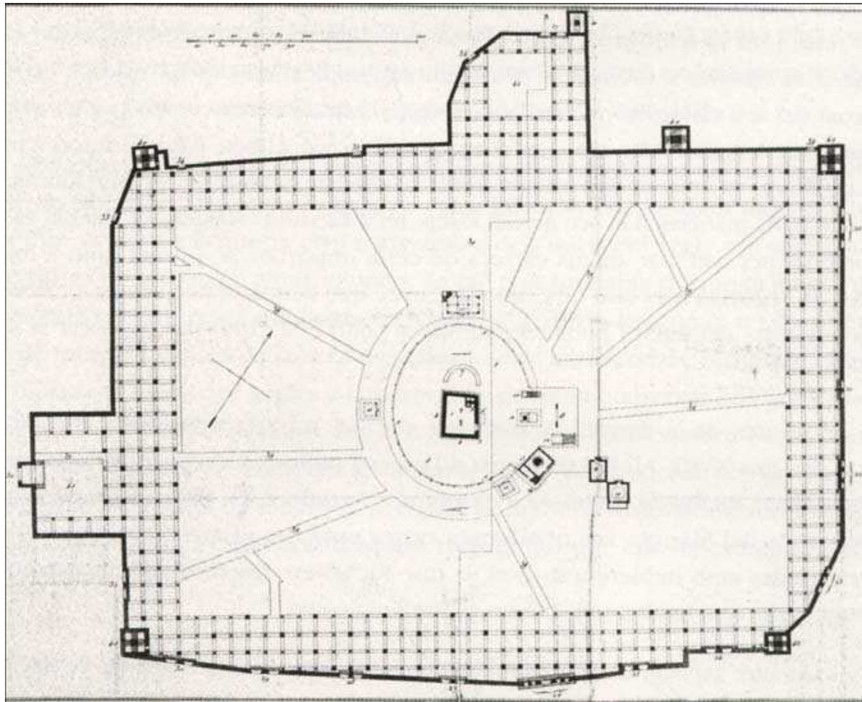
مُزْدلفة ويبدو مَسجدها



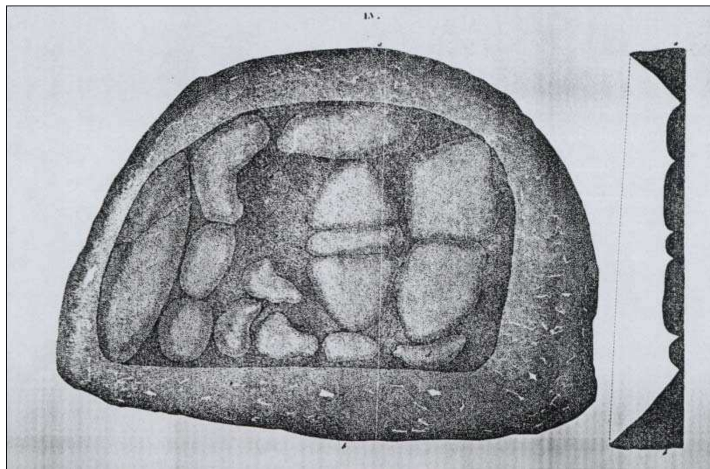
مُخطَّط لمنى وعرفات



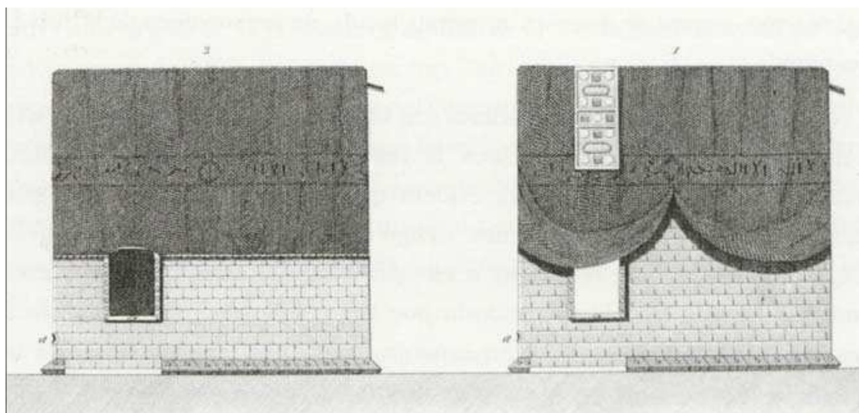
الكعبة كما رسمها باديا



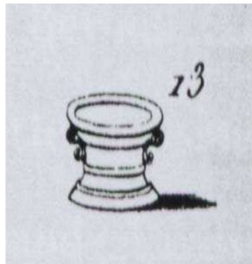
مخطَّط الحرَم المكِّي الشَّريف



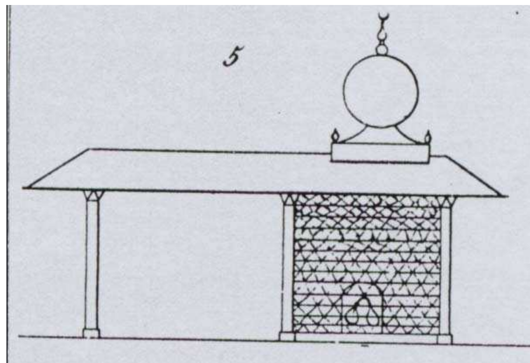
الحجر الأسود



كسوة الكعبة المشرَّفة أو ثوب الكعبة الجديد كما يسمِّيه باديا

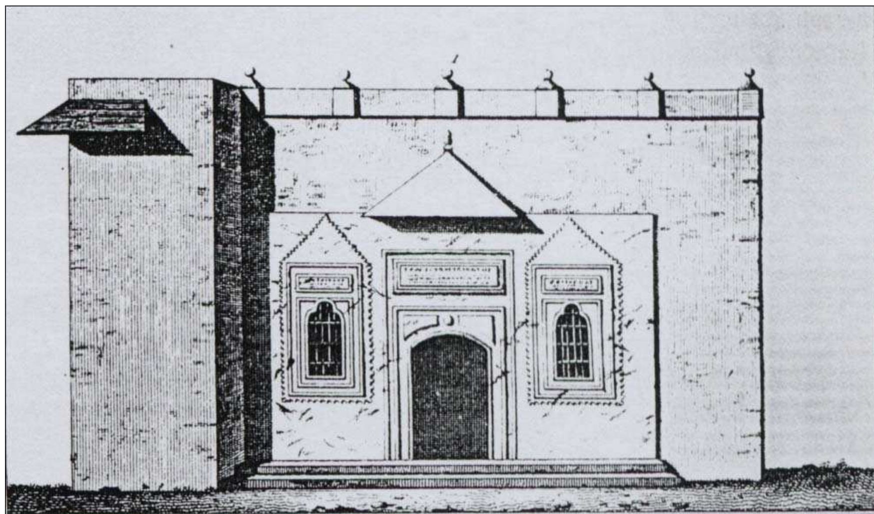


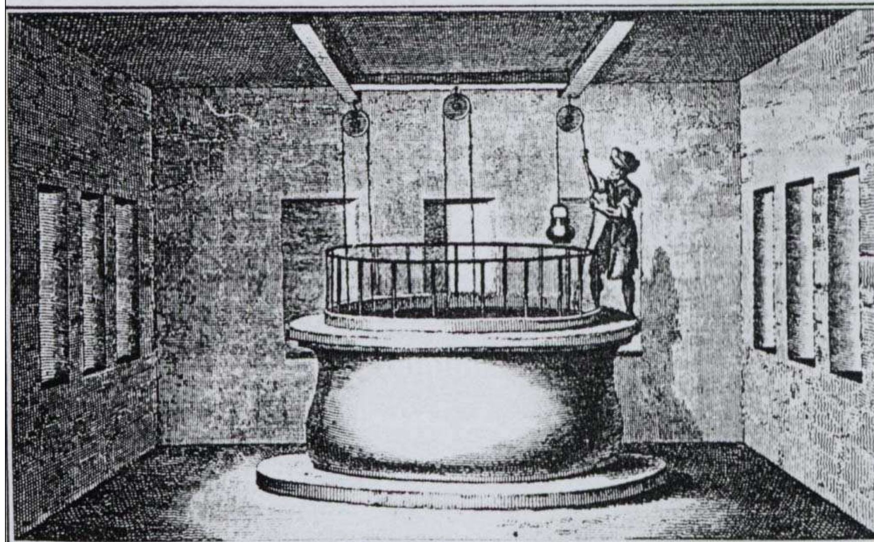
مبخرة داخل الكعبة



مقام إبراهيم

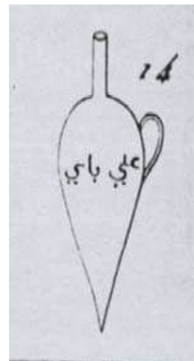
باب السلام



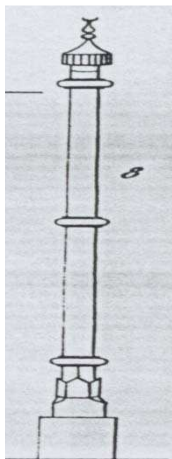


بئر زمزم

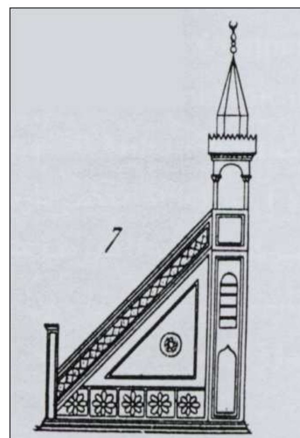


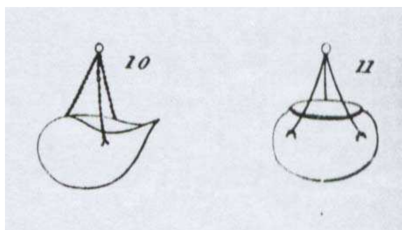
إحدى الدنان التي خصصت لباديا



المنارة



المنبر ويقع بجانب المقام

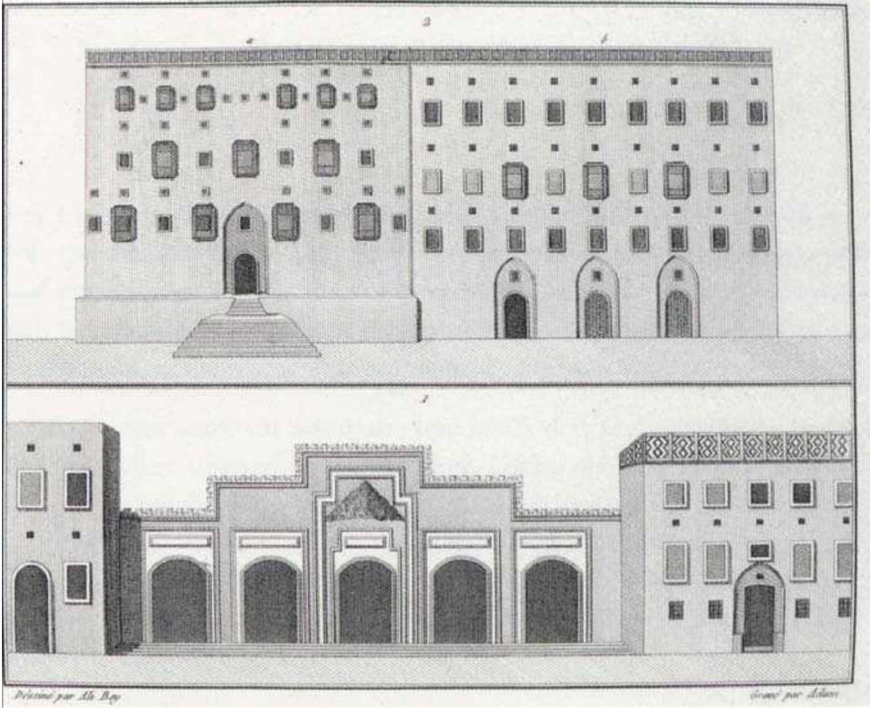


المصابيح






شمعدَان للإنارة في المسجد الحرام

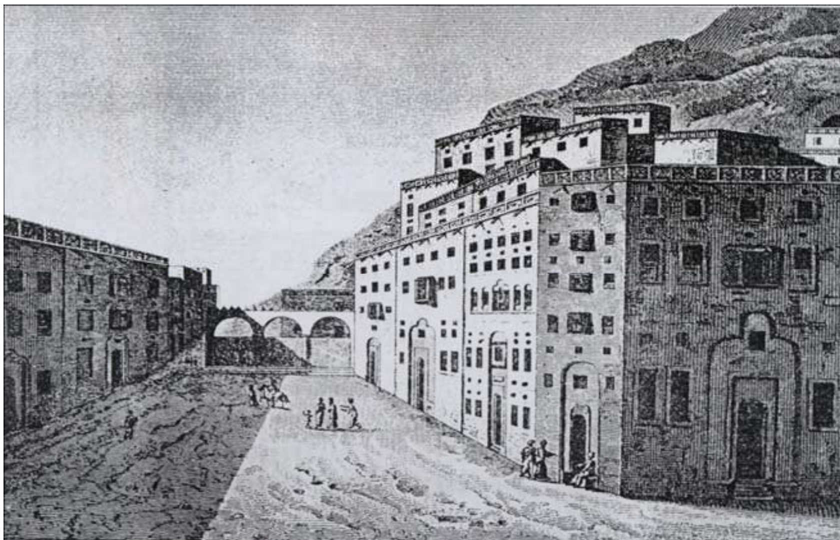


.الصورة في الأسفل لباب الصَّفا

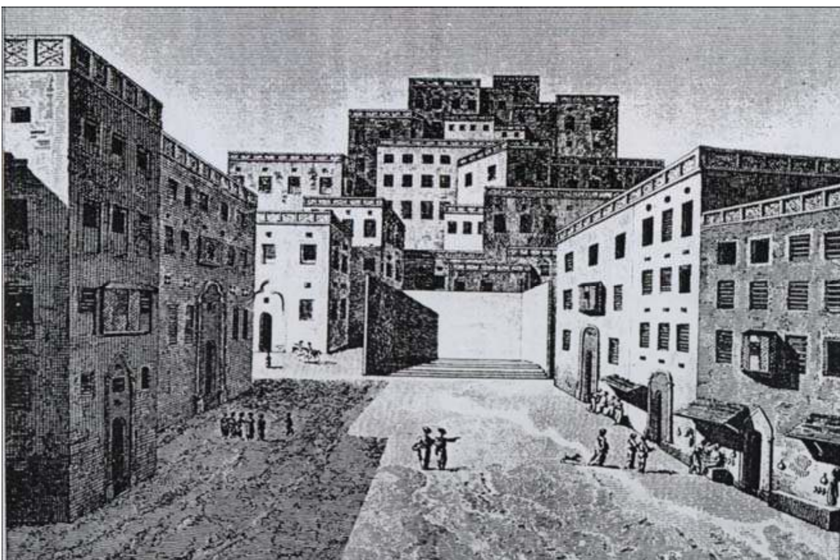
.في الأعلى: قصر الشَّريف غالب في مكَّة المكرَّمة

.في اليسار: مكان إقامته مع عائلته

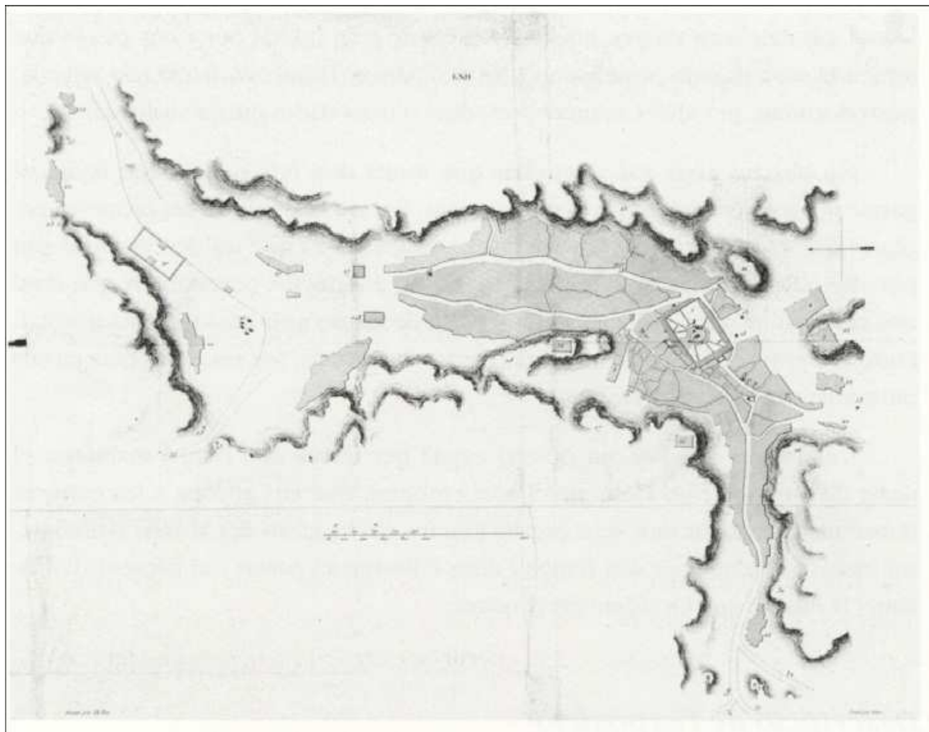
.في اليمين: المكان المخصَّص لخدمه والعاملين لديه



الصفا



المروة

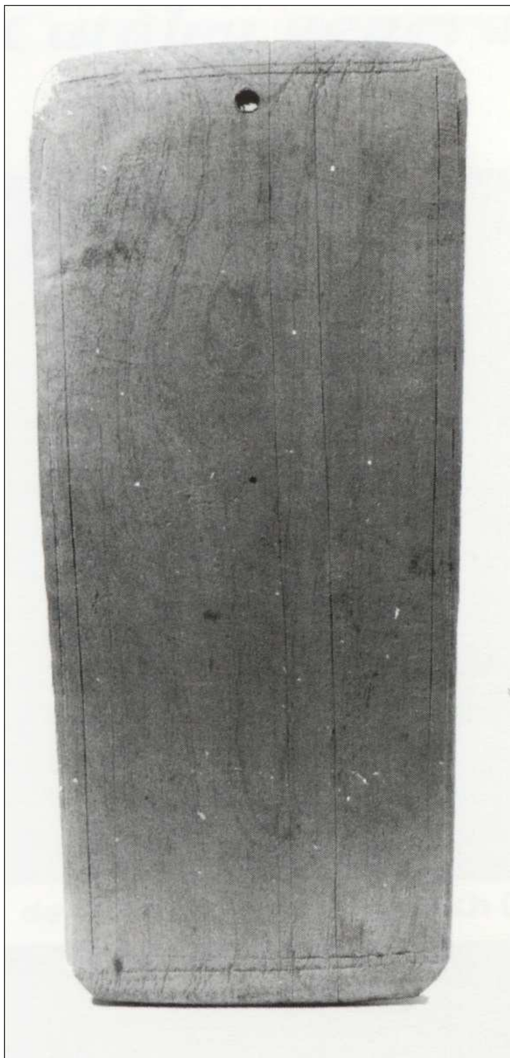


تخطيط طولي لمدينة مكَّة المكرَّمة ويبدو الحرَم في الوسط

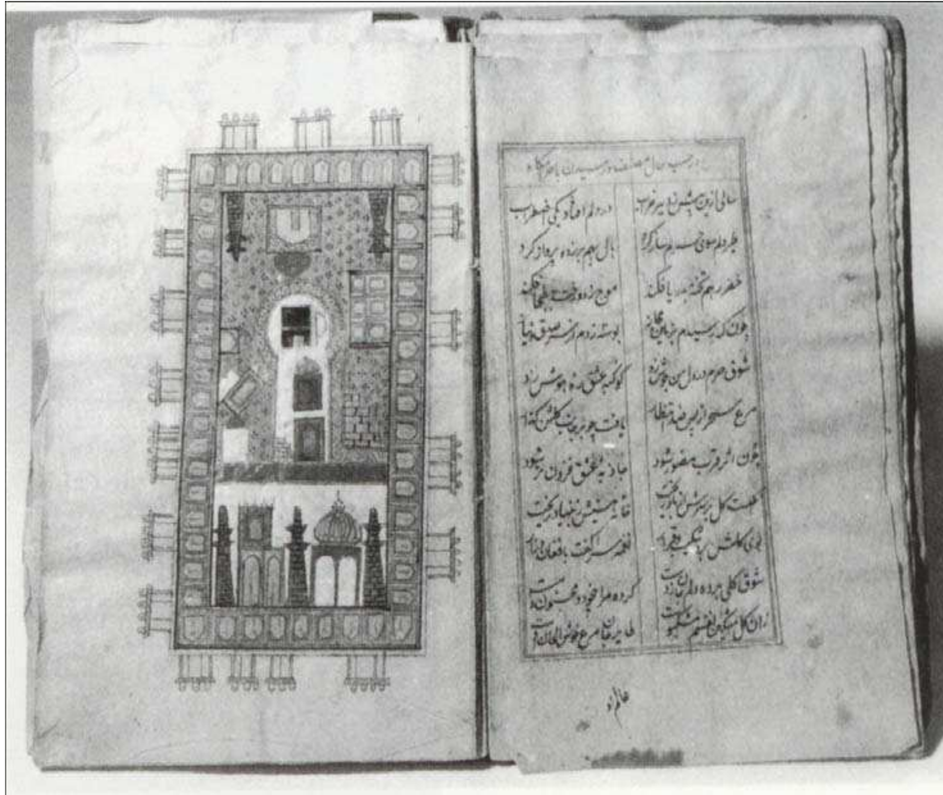
أمَّا أسعارُ المواد فهي مُتفاوتة للغاية، بسبب انعدام الأمن في الجانب التِّجاري. والقائمة التّالية تُوضح الأسعار، وكيف كانت عندما كنتُ هناك عام ١٨٠٧م (١٢٢١هـ):

أوقيَّة السّـَمن	٥ قُروش تُركيَّة
الدَّجاجة الواحدة	٤ قُروش تُركيَّة
نصفُ دَرزن من البيض	١ قِرش تُركي
حِمل بعير من الماء العَذْب	٢ قِرش تُركي
أوقيَّة الزَّيـت	٤ قُروش تُركيَّة
أوقيَّة الخبْـز	١٢ بَارة
قِربة من ماء البئْر	١٢ بَارة
أوقيَّة الحطَب	٣ بَارة
أوقيَّة الفحْـم	٢٠ بَارة

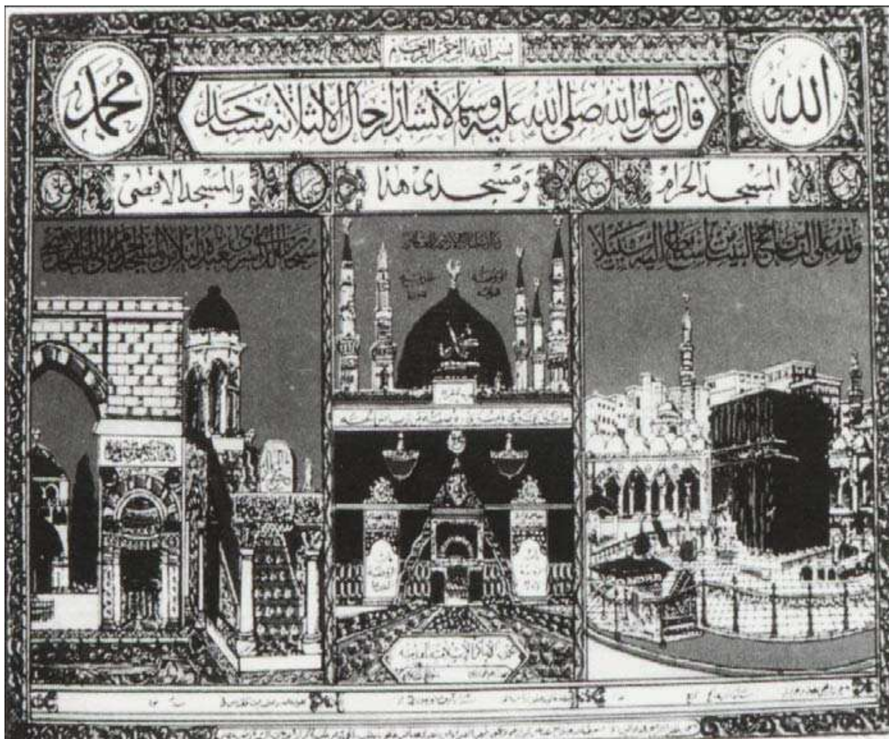
بعض النباتات كما رسمها الرحالة



السَّبورة التي كانت تُستعمل في الكتاتيب آنذاك



صفحة من إحدى المخطوطات التي كانت مُتداولة



لوحة تمثِّل المساجد الثلاثة التي تشدُّ لها الرِّحال كما هو واضح، وهذه ممَّا كان يُباع للحجَّاج في مكَّة المكرَّمة







نَقْش فوق صورة الكعبة، ممَّا يُباع للحجَّاج من زوَّار مكَّة المكرَّمة



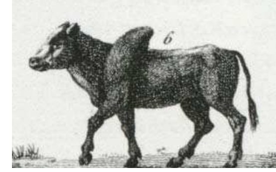
١ - لحن أنشودة البحَّارة في البحر الأحمر.

٢ - أغنية سمعها باديا من امرأة في مِنى.

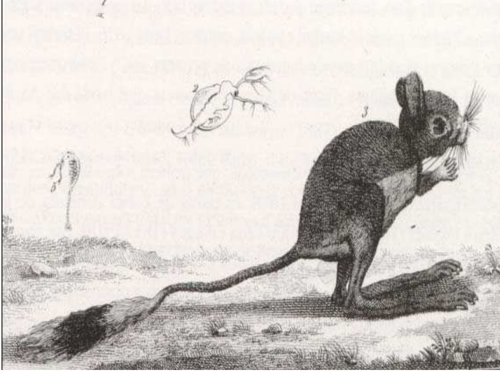
٣ - نشيد جماعي لمجموعة من النِّساء في مكَّة.

٤ - نشيد لمجموعة من الرَّجال في جدَّة.

٥ - أنشودة البحَّارة في البحر الأحمر.



البقر

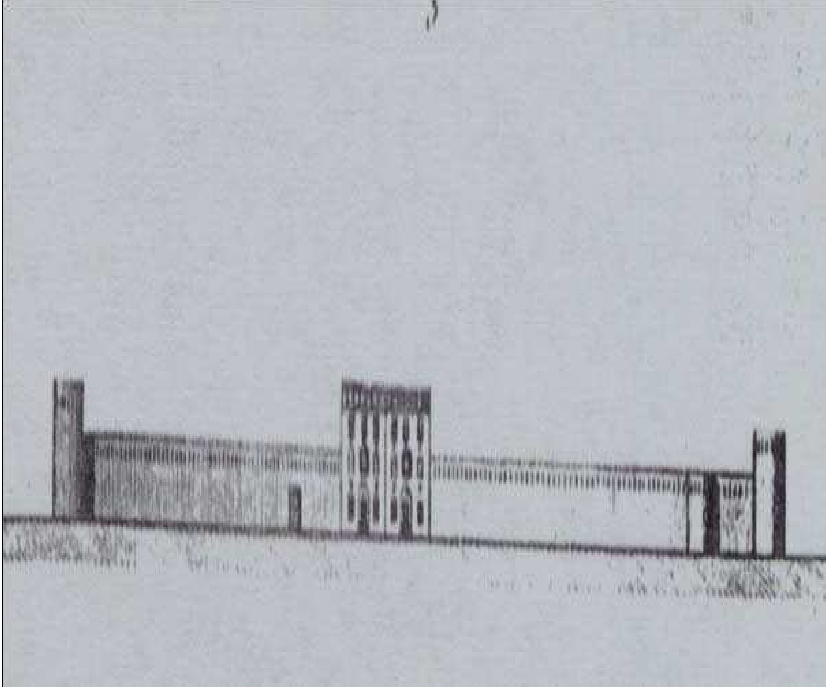


الجرذ



السجاد





معسكرُ الجنود المغاربة والزُّنوج التّابعين للشَّريف، يقع عند مَخرج المدينة من جهة طريق عَرفات

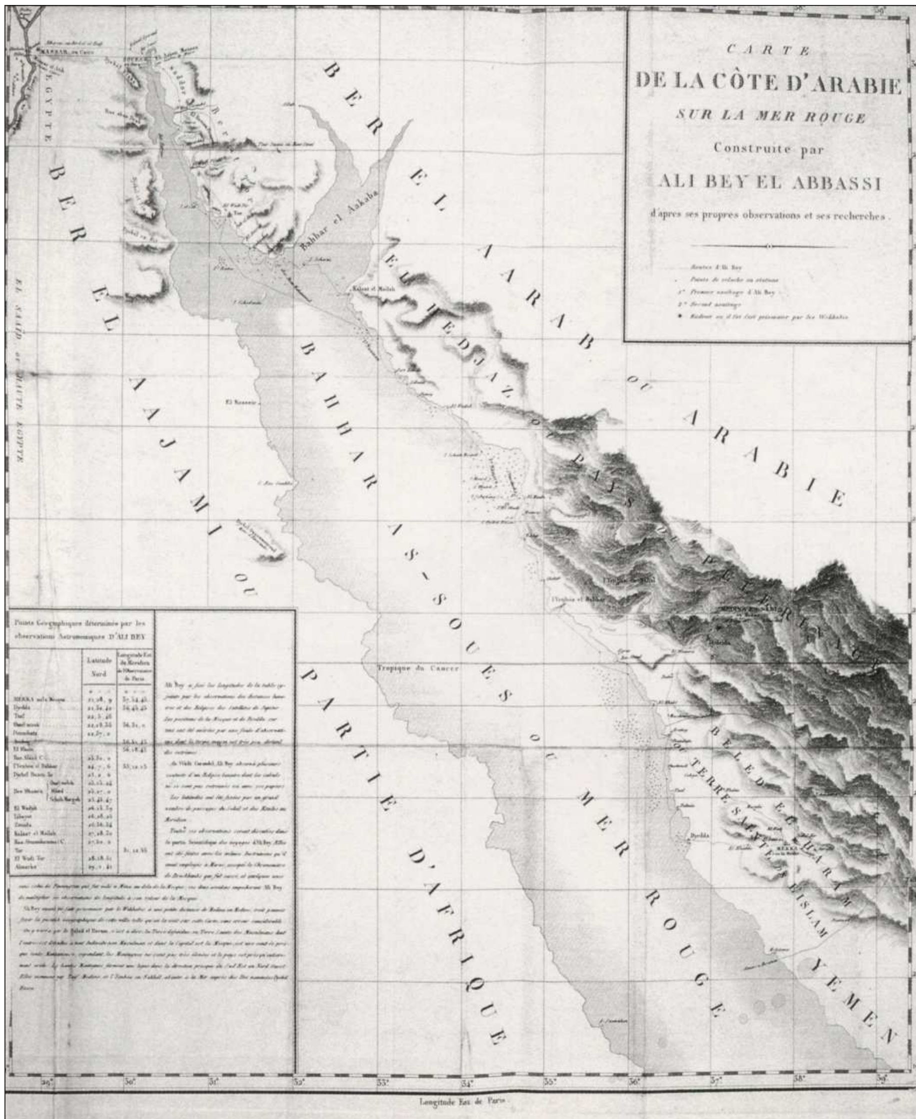
الفارس العربي ممتطياً صهوة جواده (إحدى لوحات باديا التي صوَّرها في مذكِّراته)



الرَّحل أو الخِرج وهو المعدُّ لحمل الأغراض فوق الجمل لدى بدو الصَّحراء العربيَّة



إحدى خرائط علي باي التي رسمها ويبدو فيها واضحاً الجزء الغربي للجزيرة العربية



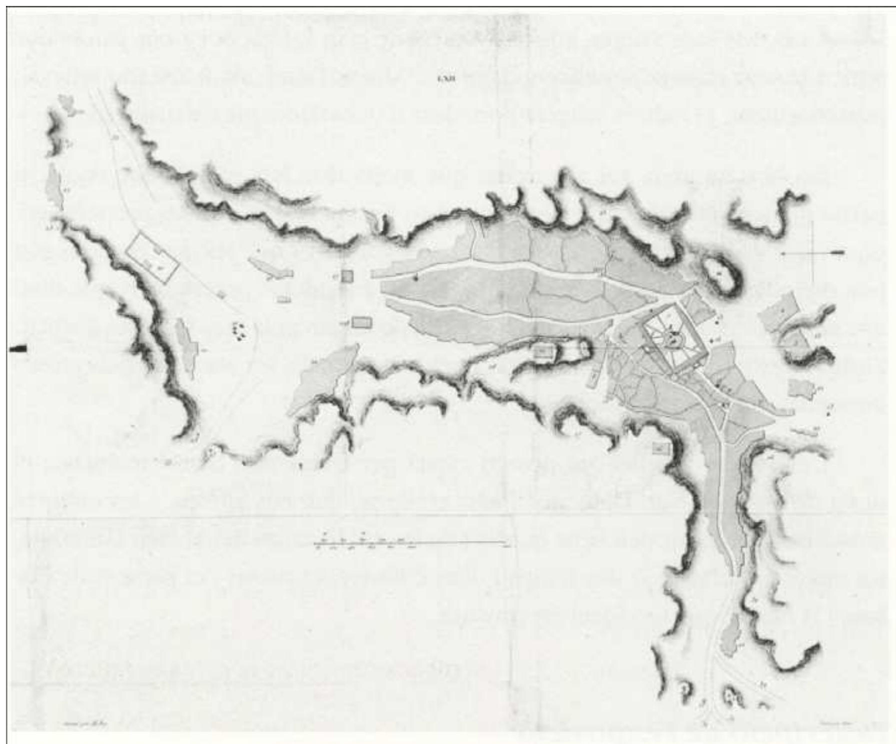
خريطة لسواحل البحر الأحمر الشَّمالية الشَّرقية منها والغربيَّة

رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي)
الطريق إلى مكة المكرمة

← خط سير الرحلة
□ أماكن توقفت بها الرحلة
○ أماكن مرّت بها الرحلة

٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠كم

بادية الشام
القاهرة
السويس
فلسطين
حمام فرعون
أيلة
شبه جزيرة سيناء
مصر
الطور
رأس محمد
البيوق
دمج
الوجه
القصير
جزر الحمار
جزيرة الوقادي
جزيرة جبل حسان
عيذاب
بلاد النوبة
شبه الجزيرة العربية
ينبع
الجار
رأس عبيد
مستورة
الخبت
رابغ
طوال الذول
الحج
الحدة
جدة
مكة المكرمة



تخطيط طولي لمدينة مكَّة المكرَّمة ويبدو الحرَم في الوسط

بادية الشام

فلسطين

القاهرة

السويس

حمام فرعون

شبه جزيرة سيناء

أيلة

الطور

رأس محمد

البحرة

دجج

الوجه

مصر

القصير

جزر الحمار

جزيرة الوقادي

عيذاب

بلاد النوبة

ينبع

الجار

رأس عبيد

مستورة

الخبت

رابغ

جدة

مكة المكرمة

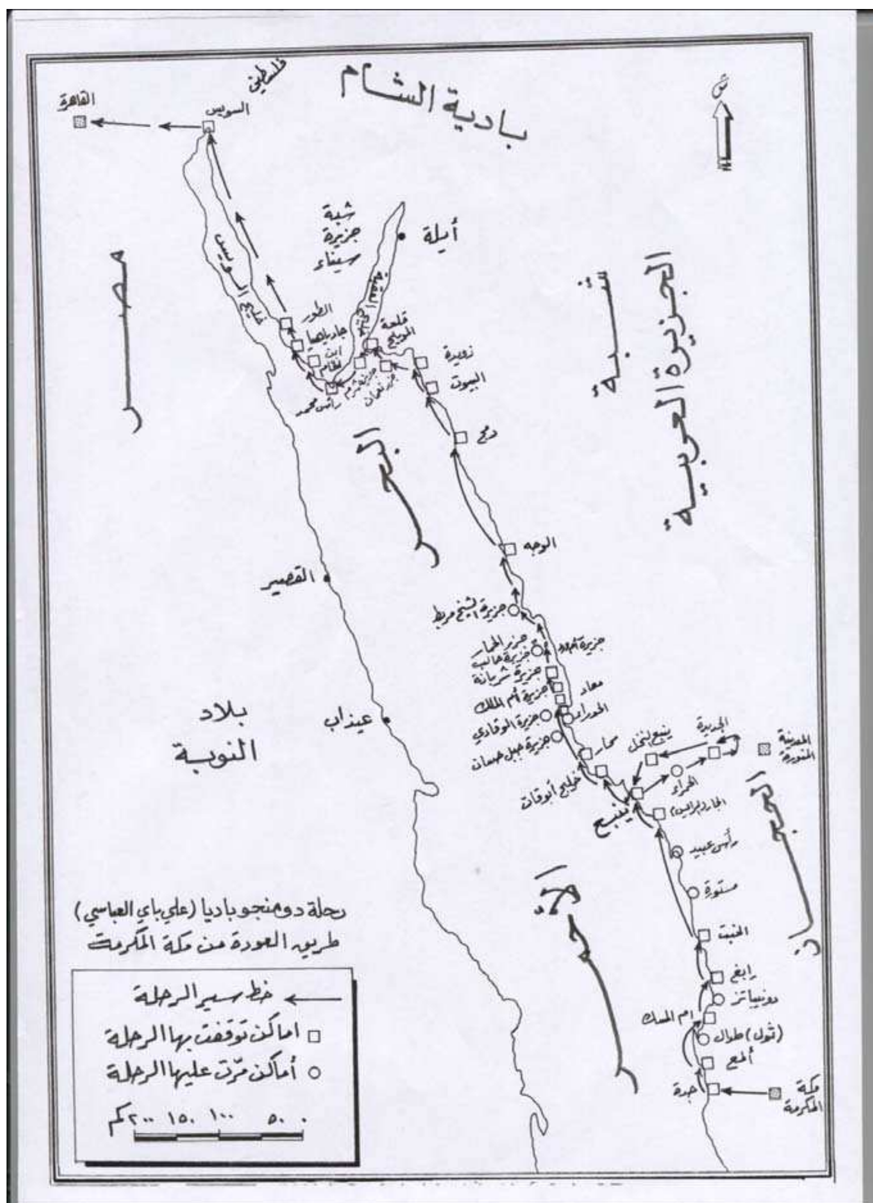
رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) الطريق إلى مكة المكرمة

خط سير الرحلة

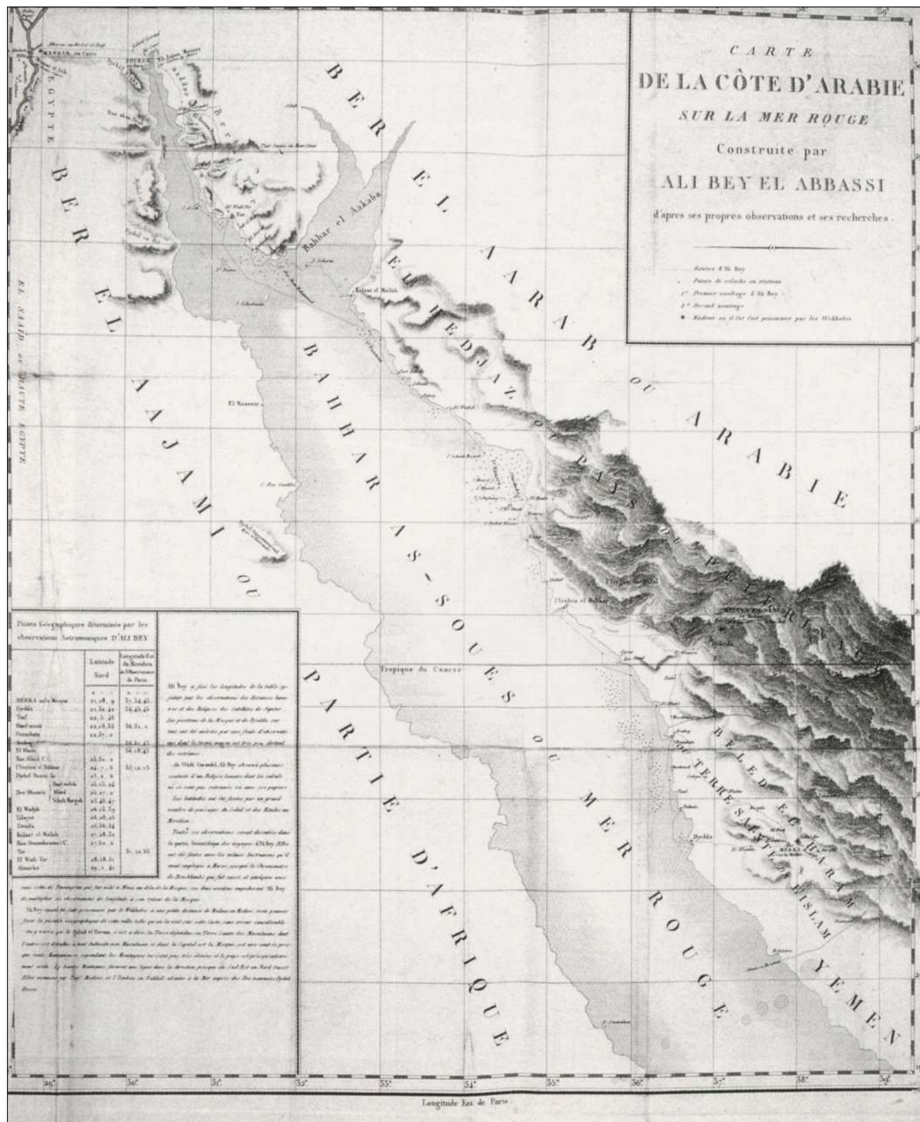
أماكن توقفت بها الرحلة

أماكن مرّت بها الرحلة

٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠كم



بادية الشام
فلسطين
القاهرة
السويس
شبة جزيرة سيناء
أيلة
مصر
الجزيرة العربية
الطور
الوجه
القصير
عيذاب
بلاد النوبة
ينبع
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
رابغ
مستورة
رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي)
طريق العودة من مكة المكرمة
خط سير الرحلة
أماكن توقفت بها الرحلة
أماكن مرّت عليها الرحلة
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠كم



خريطة لسواحل البحر الأحمر الشَّمالية الشَّرقية منها والغربيَّة

فهرس المحتويات



